شهباء

مجموعة قصصية

دنيا حسين

شهباء

مجموعة قصصية

تأليف

دنيا حسين

إهداء

إلى أمي الحبيبة التي كانت تتمني أن تراني ناجحة دائما وتري ثمرة تعبها؛ ولكنها انتقلت إلى الرفيق الأعلى قبل أن تري ما وصلت إليه الآن.

وإلي أبي وعائلتي وأخوتي سندي في هذا العالم المظلم الذي لا ينير إلا بهم.

وإلى اصدقائي الأعزاء الذين يقفون دائما بجانبي دون طلب المساعدة وإلى الذين تخلوا عني في منتصف الطريق دون أي سبب سوى انهم لم يكونوا جديرين بالثقة.

وإلى الحياة التي علمتني إنك يجب أن تخوض المعركة بمفردك، ولن ينقذك في النهاية سوي ثقتك بربك الذي يوجد معك في كل مكان، وعقلك النظيف، وقلبك الصادق، وإيمانك بذاتك، وثقتك بنفسك، اسع دائما وراء حلمك ولا تسمح لأي شخص مهما كان أن يزيغ نظرك عن طريقك وحلمك، فإن الحياة بلا حلم كالموت.

"شهباء لو كانت الأحلام كأس طلا . .

. . في راحة الفجر كنا الفجر والحباب"

– بشارة خوري

شهباء

وقفَ جهاد آخر مواطن لمدينة حلب بسوريا البالغ من العمر ٣٤ عاماً علي أطراف مدينته، ينظر إليها بحزن وآسي يرثيها بعينيه ويبكي علي حظه وحظ بلاده وموت أسرته، كيف أصبح وحيداً، يتذكر كيف كان يري موت اهله الواحد تلو الآخر يموت أمام عينيه، كيف دُمرت هذه البلاد، وكيف تحول هذا الدمار إلي حضارة ومجد مرة آخري؛ ولكن هذا الازدهار الذي حل بالمدينة ليس بأيدي أبنائها إنما علي يد الغزاة المحتلين المغتصبين الذين سلبوها من يد ابنائها عنوة ،تذكر ايضا مساعدة رئيس دولتهم علي دخول اليهود إليها وتحولت تلك المدينة الإسلامية إلي مدينة يهودية ،يري أمام عينيه المعابد، وهدم المساجد وكل شيء يتعلق بالإسلام، تذكر كيف ادعي هؤلاء الحمقى الصهاينة بأن تلك المدينة لهم وادعائهم أن آثارها تنتمي إليهم منذ عهد وظهرت

مخطوطات قديمة لا صحة لها بأن تلك الشهباء الجميلة لهم ،وانهم مظلومون كالعادة مثلما حدث لفلسطين المحتلة حدث لحلب ايضاً، لم يكن مستغرباً تخاذل الدول العربية وعدم اتحادها.

ابتسم جهاد ابتسامة سخرية، وقال:

- عجباً للعرب يمتلكون القوة والعقل ولديهم مهارات وقدرات كثيرة وهم غير قادرين استغلالها أصبح التخاذل والتغاضي عن الطريق الحق سمة بارزة لديهم.

ثم تنهد تنهيدة طويلة تكاد أن تسقط الجبال من كثرة الحرقة والمرارة التي في قلبه، ثم صرخ بصوت عال، وقال:

- واااا شهـــــباء، وااااا حسرتاه على ضياعك.

ثم سقطت دمعة من عينيه، وقال:

- ليتني متُ مثلهم لا أحتمل أن اراكي يا بلادي ملكاً لهؤلاء الأعداء.

ظل يحدث نفسه كثيراً وكأن شخصاً معه يتحدث إليه ويحاوره. ظل ينظر إلى المدينة وعيناه مغرورقتان بالدموع، والهواء البارد يحاوطه ويتطاير من كل مكان فيطير شعره وملابسه مع تطاير الهواء.

أربعة وعشرون عاماً لم يري فيها بلاده خرج منها مضطراً ابتعاداً عن القهر والظلم، ورجع إليها متخفيا بعد سماحهم بدخول العرب ماعدا السوريين وبعد تيقنهم تمام اليقين انهم قضوا على كل من ينتمي إلي

حلب، عاد بذكرياته إلى الوراء وتذكر ذلك اليوم الذي كان أشبه بيوم القيامة، بدأ نهار يوم الجمعة كالمعتاد بسماع صوت امه وهي تنادي عليه هو واخته لينا كي يستعدوا لأداء صلاة الجمعة بمسجد حلب مع ابيهم، وهو كالعادة يدعي النوم هو واخته حتى تأتي والدتهم وتقبلهم وتمسح على رأسهن وتحنو عليهم كما تفعل دائماً. وبالفعل اقتربت منهم ومسحت على رأس جهاد، وهي تقول:

- هيا يا جهاد كفاك مزاحاً، أنا أعلم إنك مستيقظ.

وهو يحاول أن يمنع نفسه من الضحك حتى لا تكشف أمره، ففتحت لينا عينها ببطء لتري امها تراها وتضحك فقامت من مكانها. ثم قالت امهم:

- هيا يا لينا لقد تأخر الوقت.

وجهاد مستمر في التمثيل، فنظرت إليه، وقالت:

- هل سوف تستمر في ادعاء النوم حسناً، سوف تري.

فبدأت امه تدغدغه، فأصبح يتنفس بسرعة غير قادر علي الكلام ويضحك بعلو صوته ويحاول أن يقول لها:

- لقد است.. يقظت كفي .. كفي.

فقبلت رأسه، واحتضنته، وقالت:

- هيا يا بني قم وتوضأ وهيأ نفسك للصلاة، حتى أعد طعام الفطور.

قام جهاد من مكانه وخرج من الغرفة فوجد ابيه كعادته، يقرأ الجريدة وبجانبه فنجان القهوة الذي لا يستطيع التخلي عنه ابدا خصوصا في وقت الصباحً. فأقترب جهاد منه، وقال:

- صباح الخير يا أبي. فرد والده مبتسماً:

- أسعد الله صباحك يا جهاد.

فقبل جهاد يد أبيه، فتابع أبيه الحديث:

- رضي الله عنك دائما كما تحاول أن ترضيني أنا وأمك، هيا اذهب واستعد لصلاة الجمعة.

وبالفعل استعدت الأسرة جميعاً للذهاب إلى المسجد، ولبس جهاد جلبابه الجديد الذي اشتراه له والده ليحفزه على الصلاة في المسجد وكان سعيداً كثيراً به. واتجهت الأسرة إلى المسجد الذي يبعد عن المنزل عشرة أمتار حيث كانوا يسكنون في حي باب الفرج القريب من المسجد، ودخل الأب وجهاد ناحية مصلي الرجال من المسجد، واتجهت الأم وابنتها ناحية النساء.

وفي تلك اللحظة أثناء خطبة الجمعة وكان الناس في المسجد جالسين مطمئنين، لا يفكرون في شيء سوي متي سينتهي خطيب المسجد من خطبته

وفجأة!! سمع المصلون صوت انفجار ارعبهم، وقام الجميع في فزع يتدافعون للخروج من المسجد، وحينها حمل الأب جهاد علي كتفه وحاول الركض به للخروج من المسجد،؛ ولكن لم يستطيعا الفرار، وقعت قذيفه علي المسجد اسقطته ، ولم يدمر المسجد فحسب بل دمرت أغلب المدينة، ومات الكثير من الحلبيين السوريين الأبرياء دون أي ذنب، وقعت القذائف علي الناس، مات الناس وهم جالسون علي مقعداهم والأطفال ساقطون في شوارع حلب والدماء تسيل منهم، ونساء أصبحت بلا مأوي، وأصبحت حلب كبركة دم كبيرة،لم تؤذن صلاة العصر في ذلك اليوم في المدينة، وكأنها علامة من علامات يوم القيامة، عندما لا تقام الصلاة في مدينة من المدن تعد كارثة كبيرة.

كنت تحت الأنقاض وأبي فوقي حاول تغطيتي بجسده كي لا أصاب بأذى كنت اشعر بثقل جسده وأصبحت غير قادر علي التنفس، كنتُ أحس بالخوف، واشم رائحة الموت، مضي كثير من الوقت وأنا على ذلك الحال ولا أدري كم مر من الوقت؛ ولكني اسمع صوت أمي من الخارج وهي تبكي وتصرخ وتقول:

- لينا .. لا يا حبيبتي، أرجوكِ استيقظي لا تموتين. ليـــــنا، ليـــــــنا.

في تلك الأثناء كنت اسمع أصوات الناس وهم يحملون الأحجار محاولين إنقاذنا، رفعوا أبي من عليّ، وأنا احاول التقاط أنفاسي غير مصدق ما

حدث وكل من حولي يسألني هل أنا بخير أم لا، حينها سمعت أمي وهي تنادي وتبكي:

- جهـــــاد.

وركضت نحوي واحتضنتني بقوة، وكان الرماد يغطيني ويغطيها، وكنت مذعوراً من ذلك الموقف العصيب، أري والدي مُلقي على الأرض، وفي الجهة الأخرى أختي الصغيرة، وحولهم الجثث مُلقاه في كل مكان، ووجه أمي ملطخ بالدماء. واسمع بكاء الناس حولي، وصرخات النساء، والتراب والرماد يغطيهم كأنهم يضعون دقيق علي وجوههم، كنتُ أحس انني أحلم أريد أن اصحو منه؛ ولكن هيهات تلك هي الحقيقة التي لن تنتهي.

فجأة سمعت صوت سيارات الإسعاف، ويخرج منها رجال الطوارئ والأطباء مسرعين، يحملون الجثث، ويحاولون إسعاف المصابين، ورأيتهم وهم يأخذون أبي وأختي معهم، وبدأ الجميع من حولي يمشي في طريقه كلا يبكي على ليلاه والخراب الذي حل به، وأمي مازالت تحتضنني وتبكي. فقطعت بكاؤها ورفعت رأسي، وقلت:

- أين سوف نذهب الآن يا أمي؟

بحرقة شديدة ردت الأم:

- لا أدري يا جهاد؛ لكن دعنا نذهب إلى البيت، ثم نذهب إلى المشفى لاستلام جثة ابيك واختك.

كانت الأم خائفة أن يكون البيت قد دُمر، مثلما حدث لمعظم البيوت؛ ولكنها ألتزمت الصمت وفضلت إلا تبوح لجهاد بما تخشي. أمسكت الأم بيد جهاد واتجهوا للمنزل وبالرغم من أن البيت يبعد عشرة أمتار فقط عن المسجد إلا انهم كانوا يشعرون أن الطريق طويل جداً ولن يصلوا إلى البيت ابداً. كانت حلب عبارة عن دمار معظم البيوت مدمرة، وجوه الناس عليها الحزن والحسرة وخيبة الأمل لضياع أوطانهم، وطن البيت الذي كان مأوهم ويحتمون فيه، ووطنهم الذي كان من المفترض أن يكون مصدر الأمان والطمأنينة وبدلاً أن يسعي الوطن لحمايتهم أصبح هو السبب الرئيسي في شعورهم بالخوف والقلق المستمر.

وصلنا إلى البيت، ووجدناه كما كان المتوقع عبارة عن كومة أنقاض، قطع حجارة لا قيمة لها. ولمحنا جيراننا يقفون أمام بيتهم وكان قد هدم ايضاً، ومن الواضح انهم لم يفقدوا أحد منهم لأنهم جميعاً واقفين أمام البيت. فتوجهت أم عدنان نحونا، ووجهت الحديث لأمي:

- أرأيتِ ما جري لنا من خراب؟

فقالت أمي بحرقة والدموع في عينها ورفعت رأسها إلى السماء:

- ..حسبي الله ونعم الوكيل، الله المنتقم الجبار.

- أين لينا وأبوها؟

انهمرت الدموع من أمي ونظرت إلى الأرض، وقالت:

- لقد سقط علينا مسجد حلب أثناء تأدية الصلاة، وماتوا.

احتضنت جارتنا أمي بشدة، وقالت لها:

- لا تحزني، نحسبهم شهداء عند الله، انهم في مكان أفضل من هذا الخراب والضياع.

استندت على أمي واغمضت عيني من شدة التعب، كنت غير قادر علي الوقوف.

قال زوج جارتنا والذي يدعي "حسين" وقال:

- هيا بنا.

فقالت أمي:

- إلى أين؟!

- إلى مخيمات اللاجئين، ليس لدينا مكان نذهب إليه غير ذلك المكان، مؤقتا حتى نستطيع الخروج من البلد عندما تفتح المعابر الحدودية.

- ولكن أنا لن أستطيع أن اترك زوجي ولينا دون أن ادفنهم واطمئن عليهم، هذا آخر تكريم وواجب يمكن أن أقدمه لهم.

- لا تقلقي حيال ذلك، أنا معكما، وسوف اسعي إلى ذلك لقد كان زوجك صديقي العزيز الذي وجدت فيه الوفاء وحسن الخلق؛ لنذهب الآن فالجميع متعب انظري إلى جهاد.

نظرت أمي وجدتني سانداً رأسي عليها، فحملني جارنا على كتفه، وامسك يد ابنه الذي يبلغ خمسة عشر عاماً، وجارتنا ربطت علي كتف أمي، وتوجهنا إلى المخيمات. لا أدري كم مر من الوقت حتى وصلنا إلى المخيمات؛ لأني كنت نائماً في تلك الفترة من شدة التعب. وعندما استيقظت وجدت انني داخل خيمة وبجانبي أمي تبكي وواضعه رأسها بين رجليها، وعلى الجانب الآخر وجدت جارتنا وابنها نائمون بعيداً عنا قليلًا، قمت واقتربت من أمي، وقلت لها:

- لا تبكي يا أمي فأنا معك، وسأكون بجانبك واحميكِ من اولئك الأعداء.

رفعت أمي رأسها، وابتسمت، وقالت:

- أعلم أنك بجانبي ولن تتركني، لقد كبرت ويمكن الاعتماد عليك.

شعرت ببعض الثقة، فاستطردت أمي في الحديث، وقالت:

- تعدني؟!

- بماذا أعدك يا أمي؟

- ألا تستسلم ابداً لتلك الظروف، وأن تتحدي الصعاب لتكون ناجحًا في حياتك وأن تكون شخصاً عظيماً في المستقبل كما كان يتمني والدك،

وعندما نخرج من تلك البلاد أعلم اننا سوف نعود إليها مرة آخري، لأن الله لا يرضي بالظلم ابداً ومهما طالت فترة الظلم فإن الله ينصر المظلوم دائماً ويعود الحق إلي اصحابه، لو حدث لي شيء وقدر الله لي أن أموت عِدني يا جهاد أنك ستعود هنا مرة آخري وتعيش فيها.

فهززت رأسي لأمي بالموافقة على تنفيذ الوعد.

وأثناء حديثي مع أمي سمعت جارنا عم حسين ينادي على زوجته من خارج الخيمة، فاستيقظت جارتنا من النوم على صوته، وقالت:

- صباح الخير.

وقامت وخرجت لزوجها. فخرجنا وراءها، فقال عم حسين:

- علينا الذهاب الآن إلى المشفى لاستلام الجثث.

كان من الصعب على أمي أن تسمع كلمة الجثث، انهم كانوا معانا أمس نضحك سويا، حزنت من الكلمة أنا ايضا

صمتت أمي برهة ثم قالت: -حسناً.

تنبهت للمكان حولي وجدته مليء بالخيمات الأخرى، ويوجد الكثير من اللاجئين كلهم يبدو عليهم ملامح الحزن والقهر والألم والاستبداد والظلم، المكان يشعرك باليأس وفقدان الأمل من الحياة. وبالفعل توجهنا إلى مستشفى الرازي التي تقع في شارع سويف، كان العديد من الناس

يسيرون معنا لاستلام شهدائهم ايضاً، وكأن حلب أصبحت عبارة جنازة مهيبة لشهيد واحد.

استأجر جارنا سيارة للذهاب إلى المستشفى لوضع الجثث عليها ونقلهم إلى مثواهم الأخير. ركبنا السيارة، وكان الصمت يسود السيارة ولم نسمع سوي أنين بكاء أمي وجارتنا تحاول التخفيف عنها بعبارات التهوين عن النفس التي لا تجدي نفعا في تلك الأوقات العصيبة.

وعندما وصلنا إلى المستشفى كانت مختلفة عن المعتاد لم تكن ذاك المكان البارد الهادئ الذي يوحي بالوحشة، أما اليوم فكان يختلف عن باقي الأيام الماضية؛ كانت مكتظة بالمواطنين، والضوضاء تعم المكان، وسيدات واقفين يبكون على حظهم العاثر، سار عم حسين بين الجمع وسرنا خلفه وتقدم نحو موظف الاستقبال والطوارئ، وسأله:

- هل يمكنك أن تدلني على مكان استلام جثث الضحايا؟

- في غرفة ثلاجة الموتى.

- أين تقع؟

- في الدور الثاني، اتجه ناحية اليسار وستجدها.

- شكراً لك.

لم نكن بحاجة إلى كل تلك الاسئلة فكان معظم الناس يتجهون إلى نفس المكان، وجدنا الكثيرون يقفون أمام الغرفة ويقف أمامها اثنين يبدو انهم

المسئولون عن تلك الثلاجة وكانوا يحاولون تهدئة الواقفين، ويحاولون تنظيم الوضع لدخولهم بالترتيب للتعرف على موتاهم. وبالفعل جاء دورنا لندخل، فالتفتت أمي لي، وقالت:

- انتظرني هنا حتى أعود.

ولكني صممت على الدخول معهم، وقلت لها:

- أريد أن أري لينا وأبي.

كان الموقف لا يستدعي كلام أكثر من ذلك.

دخلت معها ودخل معنا عم حسين وعامل من العاملون الذين كانوا موجودون بالخارج، وعندما دخلنا لم تكن ثلاجة الموتى كما نري في الأفلام الأجنبية عبارة عن مكان مليء بالأدراج يوضع فيها الموتى، فالأمر كان مختلفاً تماماً ،فمن كثرة جثث الموتى كانوا موضوعون علي الأرض بجانب بعضهم البعض وبينهم قطع من الثلج حتي لا تتعفن الجثث ومغطون بالكفن، كنا نسير بين الجثث بحذر شديد حتي لا ندوس عليهم ونكشف وجوه الجثث الواحدة تلو الأخرى وأثناء رفع الجثة السابعة وجدنا لينا أختي نائمة مثل الملاك السماوي وعلي وجهها ابتسامه جميله كنت أحب أن اراها عندما كنت أفعل شيء لها يرضيها. وعندما رأتها أمي، سقطت الدموع منها، وقالت:

- آااااااه يا حبيبتي.

جلست على الأرض واحتضنتها وبدأت تبكي، وتقول:
- يا صغيرتي الجميلة، لقد حرموني منكِ، كم كنت أود أن تكوني سندي في الحياة، وأن تدفنيني أنتِ بدل من أن اضعك أنا بيدي تحت التراب، كنت احلم أن اراكِ عروس، لقد ضاعت الأماني والأحلام، آااااه يا صغيرتي، رحمك الله يا عصفورة حلب.
وفي تلك الأثناء قام جارنا بالكشف عن وجه الجثة التي بجانبها ووجدها جثة أبي، كانت أمي تنظر إلي أبي وتبكي وتحتضن لينا، فقاطعها جارنا، وقال:
- لا وقت لدينا الآن علينا الذهاب لاستكمال الاجراءات، كما أن جهاد لن يتحمل أكثر من ذلك.
وجدتني أمي ابكي وراءها، ولا أقدر على التنفس من كثرة البكاء فقبلت رأس لينا وانحنت نحو أبي وقبلت رأسه وأنا فعلت مثلها ايضاً تقليداً لها، فاحتضنتني، وقلت لها بسذاجتي:
- ألن نراهم مرة أخرى؟
صمتت أمي ولم تتكلم، فقاطع جارنا الصمت، وقال:
- لا بل سوف نراهم؟
- أين؟!

- في الجنة، انهم يروننا الآن ويشعرون ما نشعر به، وأظن أن والدك لن يرضي أن تكون حزينا هكذاً، هل تود يا جهاد أن تراه حزيناً؟

- لا

ومسحت دموعي سريعاً حتى لا يحزن أبي كما كنت أظن.

خرجنا من الغرفة كانت تنتظرنا جارتنا وابنها في الخارج فأقبلت نحو أمي واحتضنتها وكانت تحاول التخفيف عنها، وكان جارنا قد اتم اجراءات الدفن، وقام بنقل الجثث إلى السيارة بمساعدة بعض العاملين بالمستشفى. وتوجهنا نحو المسجد لأداء الصلاة عليهم، وكان في المسجد عشرات الشهداء ايضاً للصلاة عليهم فوضعناهم بجانبهم وبعد الصلاة توجهنا إلى المقابر لدفنهم.

بعد انتهاء كل ذلك العناء، قال عم حسين:

- علينا أن نغادر سوريا الآن، فالمعابر الحدودية مفتوحة لمدة يوم واحد فقط، أعلم أن الأمر متعب؛ ولكن علينا الفرار والنجاة بأنفسنا.

سرنا وراءه، في صمت كنا نعلم أن لابد من الفرار من ذلك السجن. وصلنا إلى المعابر الحدودية اللبنانية وكأن بذرة الأمل بدأت تدخل في قلوبنا، ونظن أن الموت لن يترك بابنا ثانيةً إلا بعد وقت طويل، وكان هناك الكاميرات والمذيعون يصورون خروج المواطنين الحلبيين من البلاد محاولين إظهار الوحدة العربية الزائفة، وعن مدي التعاون بين

الدول ومحاولة رفع الظلم عن المنكوبين. وحين اختفت الكاميرات، بدأنا نسمع أصوات القذائف وطلقات النار تحاوطنا من كل مكان، ونحن غير قادرين على الاختباء ولا حماية أنفسنا، انحنت أمي نحوي تحاول حمايتي من القصف، وعندها سمعت صراخ أمي وكانت قد أصيبت بجرح غائر في كتفها الأيسر رفعت رأسي لأراها متألمة من الجرح وأري الجميع حولي يسقط الواحد منهم تلو الآخر، سمعت أمي وهي تقول:

- اهرب يا جهاد.

نظرت إليها وقلت لها وأنا ابكي:

- لا لن اتركك سأظل بجانبك حتى نعبر الطريق معاً.

أمي أصبحت غير قادرة على الكلام وتتنفس سريعاً:

- أطع كلامي الآن اهرب، اجري بكل قوتك، هيا يا جهاد؛ لكن عدني أن تعود مرة ثانية إلى هنا.

تركت أمي وكنت أركض بكل قوتي ومن حين لآخر انظر إليها اثناء الركض، لا أريد أن أموت مثلهم صرت على تلك الحال حتى وصلت إلى الحدود اللبنانية، وبدأت التقط أنفاسي وشعرت ببعض الأمان. وفي الأثناء التي كانت أمي تودع الحياة، كانت حلب كلها تباد وتدمر فأطلقت ذخائر كيمياوية لمدة أسبوع كامل كان المواطنون يسقطون قفلت حلب وقفلت المعابر، ولم يقدر أي شخص على الخروج بادت حلب عن آخرها،

دمرت البلاد وخربت بالكامل، وكانوا يظنون أن كل أهالي حلب أبيدوا، ولكن حلب ستظل دائماً داخل القلب.

تخاذلت الدول العربية كالعادة ولم يهتم سوي مواقع التواصل الاجتماعي الافتراضية التي لا قيمة لها في الحروب الدامية، وعادت الأمور مرة أخري كمان هي وكل دولة تسعي وراء مصلحتها ولكنها لا تعلم أن خراب دولة بجانبها سوف يسبب لها الضرر ايضاً؛ ولكن لا حياة لمن تنادي، ودخل اليهود وادعوا أن تلك البلد ملكهم وساعدهم في ذلك رئيس سوريا، أخذت الدول تندد وتتحدث؛ ولكن كما حدث في فلسطين حدث ذلك ايضاً في حلب باتوا يسلبون قطعة وراء الأخرى من أرض سوريا التي قاربت أن تكون كلها ملكاً لليهود.

- وها أنا أعود إليك مرة آخري يا شهباء لتحقيق حلم أمي قبل أن يدركني الموت أنا ايضاً فعندما علمت بمرضي بسرطان الدم وعدم قدرتي على مصاريف العلاج وكل همي أن احقق حلم أمي وأملها، كانت تظن أن حلب ستعود مرة أخرى لم تكن تدري بما حدث.

بدأ جهاد يسير داخل المدينة وكل شيء قد تغير بها أشكال المباني وهدمت المساجد والكنائس وحلت محلها معابد اليهود الصهاينة، كل اسماء الشوارع تغير اسمها بالكامل وتحول اسمها إلي اسماء آخري

مكتوبة باللغة العبرية، كان يشعر بأنه يسير في مدينة غير مدينته التي كانت محفورة في ذهنه، وبدأ يحدث نفسه:

- أتلك هي حلب؟! هل اخطأت الطريق في الوصول إلى بلدتي؟!

وتعددت التساؤلات حتى وصل إلى منتصف المدينة فوجد نفسه أمام قلعة حلب تلك القلعة الشامخة من أعظم المعالم السياحية، والتي كانت تسمي ايضاً بقلعة سيف الدولة الحمداني "تلك القلعة شهيرة الامتناع، ثابتة الارتفاع، معدومة الشبيه والنظير في القلاع، تناهت حصانه أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، مائدة في الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها، وأشبع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تزل، طاولت الأيام والأعوام، وشبعت الخواص والعوام".

وبهذا تظل قلعة حلب الشهباء شامخة إلى يومنا هذا تروي أسرار الجمال والعراقة العربية الإسلامية، وتروي تاريخ الأجداد وتضحياتهم من أجل الحفاظ على أرضهم. ولكن تحول ذلك الشموخ وتلك التضحية الكبيرة إلى أن يأتي اليوم ويأخذها الصهيونيين ويسلبوها منا، وادعائهم انها ملكاً لهم وأن العرب هم السبب في ظلمهم وتشريدهم في الأرض، بل وصل بهم الأمر أن وضعوا بعض النقوش اليهودية تلك اللغة التي انشئت من العدم. وعندما رفع جهاد برأسه ووجد تلك النقوش شعر بالغضب

والحمية على وطنه الضائع، فاقترب ناحية القلعة ليدخلها فمنعه الحراس من الدخول، فقال لهم بغضب:

- أريد أن ادخل القلعة.

كان الحراس لا يفهمون ما يقول، وهم ينظرون بدهشة إلى بعضهم، ومستغربون، كان الحراس يمنعوه بالقوة، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- هذه قلعتنا نحن، أتفهمون ؟! حلب عربية، وستظل عربية.

وفي الأثناء الذي كان الحراس يمنعون جهاد من الدخول، كانت تخرج من المعبد فتاة تدعي استير كان أبوها من الوزراء وصاحب الرابطة التي تدعو بحرية الأديان، وكان شعاره "الدين دائما في القلب؛ ولن تستطيع أي قوة تحطيم ما في قلبك"

كانت استير واقفة تشاهد ما يحدث، وكانت تفهم كلمات جهاد لمعرفتها للغة العربية، لذهابها إلى مصر واستكمال دراستها الجامعية هناك. وعندما رأت أن الحراس يدفعونه بالقوة لسجنه، ركضت نحوهم وأمرتهم بأن يتركوه، كانت تتحدث إليهم وجهاد لا يفهم كلمة مما تقول. ولكنه استنتج انها تكلمهم بشأن أن يتركوه وشأنه؛ لأنهم بالفعل تركوه ورجعوا مكانهم أمام القلعة. بدأ جهاد يلتقط أنفاسه ويرتب ملابسه، فسمعها تقول له:

- أنت بخير؟

فأندهش جهاد لأنها تحدثه باللغة العربية، فقال لها:

-أنتِ عربية؟

-لا، أنا يهودية إسرائيلية.

تضايق جهاد منها في أول الأمر للعداوة المسبقة بين الإسرائيليين والعرب، لكنه سألها:

- كيف تتحدثين اللغة العربية، ولماذا جئتِ إلى هنا؟

- أعرف اللغة العربية لأنني عشت في مصر أثناء دراستي الجامعية، وكانت أغلب دراستي بتلك اللغة، وجئت إلى هنا لكي أعمر حلب، وأبي أحد الوزراء وصاحب رابطة حرية الأديان.

استنكر جهاد من حديثها، وقال:

- حرية الأديان!

قالها وهو يضحك باستهزاء منها، فقالت له:

- لا تندهش فليس كل اليهود صهاينة.

استطردت استير في الحديث، وقالت:

- من أنت؟ ومن أين أتيت؟

- أتيت من لبنان لزيارة حلب.

- كيف دخلت إلي حلب؟ ممنوع دخول السوريين إلى هنا.

قال جهاد بحدة في نبرة صوته:

- لا أحد يستطيع من منعي دخول وطني.

- أنت سوري الجنسية؟

زاغت عين جهاد، وقال:

- لا بالطبع، بل لبناني كل البلاد العربية عبارة عن دولة واحدة.

شعرت استير بريبة في الأمر فملامحه لا تدل انه لبناني الجنسية ابداً، ولكنها فضلت الصمت حتى تتأكد من صحة ظنونها. فقالت له:

- حسناً! لماذا أتيت إلى هنا؟

لم يجيبها جهاد وتجاهل سؤالها، وطلب منها مساعدة بالرغم انه يعرفها للمرة الأولي:

- هل يمكن أن تساعديني أزور آثار حلب؟

- لماذا؟!

- أريد أن اشعر أنى بحلب واشم رائحة عبيرها، حتى لو كان المتبقي منها بقايا!

هنا تأكدت ظنون استير انه من سوريا خصيصا من حلب ويخفي عليها الأمر، خوفاً من أن يقتل هو الآخر. فقالت له:

- حسناً، قل لي ما هي الآثار التي تود زيارتها؟

- المدرسة الشاذبحتية، والمدرسة الظاهريّة، سوق المدينة، وسوق خان الحرير، قلعة حلب، قلعة سيف الدولة الحمدانيّ. دار الكتب الوطنيّة، باب

الأحمر، قاعة العرش، مسجد الخسروية، برج ساعة، باب الفرج، بيمارستان آرغون الكمالي، جرف الأحمر، وكنيسة الشيباني، المكتبة العجمية، مئذنة المسجد الأموي، خان البرغل، ومتحف حلب، وكهف الديدريّة، ساحة السبع بحرات. محطة قطار بغداد ....

وبينما هو يعدد الآثار الكثيرة في حلب قاطعته استير، وقالت:

- تمهل أن معظم الآثار التي تتحدث عنها محيت من الوجود ولم يعد لها آثر، والباقي منها أوضحت المخطوطات اليهودية القديمة انها تنتمي إليهم.

شعر جهاد بالحزن، ونظر في عين استير مباشرة؛ وقال لها:

- هل يرضيكِ ذلك الظلم الذي حدث؟

- ......

صمتت استير لم تكن قادرة على الرد عليه.

-حسناً، ساعديني على أن أري أي شيء ينتمي إلى حلب يكون من رائحتها القديمة.

- سأساعدك بالطبع، لنبدأ من الغد ألقاك غداً هنا في نفس الوقت لزيارة تلك القلعة التي أمامك من الداخل، وأرجو أن تشعر بحلب كما تقول.

- اتفقنا.

تركته استير وهمت بالرحيل، فناداها بصوت عال، وقال:

- يا ...

فالتفت إليه وشعرها يتطاير مع الهواء، ففقد جهاد عقله من شدة جمالها، فقالت:

- هل تريد شيء مني قبل أن اذهب؟

- لم أعرف اسمك فقط؟

ابتسمت له

- استير

واستطردت في الحديث، وقالت:

-سنتقابل في نفس المكان عند القلعة.

ومضت في طريقها. لم تغفل عين جهاد طوال الليل، كان يود أن ينتهي الظلام حتى يري قلعة حلب من الداخل وماذا حل بها، هل سيشعر حقاً بحلب القديمة كما يظن، هل سيشعر ببعض الأمان حتى ولو كان وهمي. كان يفكر ايضًا باستير تلك الفتاة الرقيقة الجميلة التي لا تنتمي لأخلاق الصهاينة، أظهرت مدي أخلاق اليهود الحق أصحاب الكتاب.

آتي الصباح وكان جهاد واقفاً ينتظرها منذ الليل في نفس المكان، فلا مأوي لديه. أقبلت استير نحوه وهي مبتسمة وكان يشعر بالفرح لرؤيتها، ولا يدري ما سبب فرحته بالرغم ما به من ظروف ومرضه الذي لن ينجو منه، فقالت له استير:

- كيف حالك اليوم؟

- بخير، وأنتِ؟

- بخير ايضًا، مستعد للجولة؟!

- بالتأكيد!

- هيا بنا.

دخلا كل من استير وجهاد قلعة حلب ولم يتفوه أحد من الحراس بكلمة واحدة، كان ينظر إلى الحراس نظرة انتصار عليهم؛ لأنه فعل ما يريد رغماً عن أنوفهم.

سارت استير ويتبعها جهاد خلفها وهو ينظر إلى جدران القلعة ويري براعة المهندسين المعماريين الإسلاميين، وتلك الآثار الإسلامية الرائعة فسبحان من أحسن تدبيرها؛ وبينما كانا يسيران وجد حائط كبير مكتوب عليه باللغة العبرية؛ ولكن يبدو على ذلك الجدار انه حديث العهد، ولم يسمع عنه من قبل، فقال لإستير:

- ما هذا الجدار لم أره من قبل؟

- عند دخولنا حلب اكتشفنا ذلك الجدار وأن تلك القلعة تنتمي إلى اليهود، وأن العرب المسلمون أخفوا ذلك الجدار لإخفاء الحقيقة عن أعين الناس جميعاً.

وبينما تتحدث استير، أحس أن الدنيا تدور به ووقع جهاد مغشي عليه. فاق جهاد ولم يدري ما حدث له سوي انه وجد رأسه موضوعة على رجل استير وهي تبكي عليه، وعندما رأت أنه فتح عينه، قالت له:

- كنت اعلم أنك من حلب، اشعر بحرقتك ومرارتك على فقدان وطنك.

كانا يبكيان معا فسقطت دمعة من عين استير تلاقت مع دمعة جهاد فامتزجت الدمعتين معاً، في تلك اللحظة كان جهاد يلتقط انفاسه الأخيرة وسمعت استير انه ينطق الشهادتين، وأغمض عينه. وهكذا مات آخر حلبي في التاريخ، وقامت استير تمجيداً له أن دفنته وكتبت على قبره:

"هنا يقع آخر حلبي سوري مخلص لوطنه."

"بيني وبينك علاقة حب صعبة لا أفكر في مقاومتها، أو الاحتجاج عليها، فالحب الكبير هو دائما حب صعب."

– نزار قباني

رسائل لم تقرأ بعد

جمعت أقلامها، وأمسكت هاتفها في يديها، واستعدت لكي تذهب إلى الجامعة للاختبار؛ ولكن هذه المرة بدت مختلفة، لم يكن يسيطر عليها الخوف من الرسوب من الامتحان مثل باقي المرات؛ كان يظهر على ملامحها الحزن، كل من ينظر إليها من أهلها يعلم انها حزينة، كانوا يظنون انه خوف من الامتحان؛ ولكنه أمراً آخر.

دخلت إلى غرفة والدتها وتوجهت ناحيتها وقبلت رأسها ونظرت إليها قائلة:

- دعواتك يا أمي

كانت امها تشعر أن ابنتها حزينة لشيء آخر ولكن فضلت سؤالها فيما بعد.

= الله يوفقكِ يا هَنا، انتبهي لحالك في الطريق.

- حاضر يا أمي، إلى اللقاء.

نزلت درجات السلم، وتحركت نحو موقف الحافلات، ثم صعدت الحافلة وجلست في كرسيها المفضل قبل الأخير، كانت تشعر بامتعاض شديد عندما تجد احداً جالسًا في مكانها، وتود أن تقول له إنه كرسيها، لم تكن تبالغ حين تفكر انها تود أن تضع اسمه عليه حتى لا يجلس أي شخص في هذا المكان.

بعدما جلست على كرسيها فتحت كتابها لتبدأ بالمراجعة مثلما تفعل في كل مرة.

وهي في طريقها للجامعة، كانت ممسكة بالكتاب وتنظر إليه وكأنها لا ترى الكلام، أحست انه لا جدوى من المراجعة فأغلقت الكتاب واسندت رأسها وهي تتابع الطريق بملل شديد.

فتحت هاتفها النقال، وأخذت تتصفح صفحتها الإلكترونية، وبين الحين والآخر تنظر إلى رسالتها التي أرسلتها إليه متسائلة هل شاهدها أم لا! وبالفعل عندما فتحت المحادثة التي بينهما رأت انه شاهد الرسالة؛ ولكنه لم يرد عليها مثلما فعل في اليومين السابقين وهي لا تعرف سبباً لتغيره تجاهها.

أخذت تتابع الطريق مرة آخري، وهي شاردة الذهن تفكر فيه، وتقول في نفسها، لماذا يبتعد عنها كل مرة بدون أي وجه حق وبدون مقدمات وهي اعتادت على وجوده في حياتها! هي تحاول بشتى الطرق أن تكون

بجانبه في كل الأوقات في حزنه وسعادته ونجاحه وطموحه وتحاول التخفيف عنه إذا اصابه مكروه.

ثم تحاور نفسها وتسأل لماذا لا تشعر يا يوسف بمدي عذابي وحرقتي حين تقرر الانعزال عني، وأنت تعرف مدي حبي إليك؟! أصبحت في حيرة دائمة من أمورك وتصرفاتك وبدأ الشك يدخل في قلبي من عدم حبك احتياجك لي في حياتك، أصبحت أشعر انني مثل البطاقة الشخصية لا يُلتفت إليها إلا عند الحاجة والاستخدام، رغم اهميتها وعند ضياعها تعد كارثة من كوارث الحياة الكُبرى.

وفي كل مرة تود أن تضع موقفاً حاسماً لهذا التغير بأن تبتعد او تواجهه؛ ولكن دون فائدة بمجرد كلمة واحدة تعبر عن رضاه عنها تنسي كل هذا العذاب، وتشعر أن الحياة عاد لها الوانها.

كيف يصبح الإنسان ساذجاً إلى الدرجة التي تجعل حاله يتغير لمجرد كلمة او نظرة لمجرد وقوعه في الحب، أهذا دليل ع الضعف، أو ارتباط روحي بشخص لا يفهم أن روحك ومصيرك معلقة في قبضة يده.

ولكن.... إلى متي تظل هكذا بلا قرار!

توقفت الحافلة أمام بوابة الجامعة فنزلت منها ودخلت الجامعة ثم توجهت إلى مكان لجنتها حيث يقف صديقاتها، أخذت تسلم عليهم بالتناوب بالقبلات والأحضان وكل من ينظر إليها يري معالم الحزن ظاهرة على

وجهها، رغم محاولتها في إخفاء ذلك بالابتسامة ومحاولة الضحك ورمي النكات؛ ولكن عينها تفضحها دائماً؛ وبررت هنا ذلك بالقلق الشديد من هذه المادة وأخذت تدعو الله بأن يأتي الامتحان سهلاً على الجميع.

وفجأة ..

خطرت في بالها فكرة بأن ترسل ليوسف رسالة تطلب منه أن يدعو لها بالنجاح لخوفها الشديد من هذا الامتحان، لعله يحن عليها ويرد عليها هذه المرة.

دق جرس الامتحان يعلن باستعداد الطلاب للذهاب إلى لجنتهم لحل الاختبارات المتنوعة، وصعدت هَنا مع صديقتها التي معها في اللجنة وامتحنت وخرجت سريعاً من اللجنة، وفضلت عدم انتظار صديقاتها، حتى لا يلحون عليها بالسؤال عن سبب حزنها.

خرجت من الجامعة ثم توجهت لتصعد الحافلة وجلست في مكانها كالعادة وفتحت حقيبتها لتخرج منها الهاتف، وتعجلت سريعاً في فتح الهاتف بعد أن اغلقته في لجنة الامتحان وتوجهت مباشرة إلى محادثة يوسف؛ ولكنه لم يرد عليها كما كان المتوقع.

امتلأت عينها بالدموع، لشدة معاناتها من عدم رده عليها، وحاولت تتمالك نفسها حتى لا تبكي، ولكن دون جدوى نزلت دَمعة من عينها،

وأخذت تسأل نفسها، لماذا يحدث كل هذا، هي حقاً أصبحت لا تدري ما هي الجريمة التي ارتكبتها حتى يبتعد عنها!

وصلت إلى البيت، وبمجرد أن فتحت الباب سمعت صوت ضحكات سُعاد صديقة والدتها تتبادل أطراف الحديث مع أمها، فدخلت وقال:

- السلام عليكم.

فردت كل من الأم والصديقة السلام، وأقبلت هَنا مسرعة تحضن سُعاد وترحب بها فهي تحبها كثيراً، وتعتبرها في مقام والدتها، وفي كثير من الأحيان تحكي لها أسرارها، فهي لم تكن صديقة والدتها فقط، بل كانت صديقتها ايضاً.

سألتها سُعاد:

- ماذا فعلتِ في الاختبار؟

فردت:

- كان يسيراً بفضل الله ودعوات أمي لي.

قالت والدتها أنها سوف تدخل إلى المطبخ لكي تحضر الطعام لكي يتناولون الطعام معاً؛ لأنهم كانوا ينتظرونها حتى تعود.

ولكن هَنا قالت انها لا تود أن تأكل الآن، وأنها تفضل النوم لتعبها الشديد.

ثم طلبت منهم الانصراف، وذهبت إلى غرفتها، أمسكت الهاتف مرة آخري ونظرت إلى المحادثة؛ لكن كما كان متوقع عدم الرد.

نظرت سُعاد إلي الأم، وقالت لها:

- يبدو على هَنا الحزن.

فردت الأم:

- انها هكذا قبل ذهابها إلى الجامعة؛ ولكني فضلت سؤالها بعد رجوعها.

فقالت سُعاد:

سوف أطمأن عليها ريثما تنتهين من إعداد الطعام.

اومأت الأم برأسها موافقة ولكن القلق كان باديًا على ملامحها فربتت سُعاد على كتفها، وقالت لها:

- لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام.

توجهت الأم إلى المطبخ، ثم طرقت سُعاد الباب؛ فأذنت لها هَنا بالدخول.

فقالت سُعاد:

- أردت الاطمئنان عليكِ، ماذا بكِ؟

- لا شيء، اشعر بالتعب والإرهاق من آثر المذاكرة، والامتحانات.

- هل ستخفين عليّ؟

ثم اقتربت منها وقبلت رأسها، وقالت:

- أود الاطمئنان عليكِ.

نظرت هَنا إليها والدموع تنساب من عينها، وقالت:

- يوسف لا يرد على الهاتف منذ يومين، ولا حتى على رسائلي. أنا أشعر أنه يبتعد عني ولا يريد الحديث معي، وأنا لا أفهم ما السبب، كل ما أريده هو الاطمئنان عليه.

اندهشت سُعاد، ونزل الكلام عليها كالصاعقة، مصدومة، لا تعرف كيف ترد عليها.

لأن الحقيقة بأن يوسف خطيبها استشهد منذ عام ونصف في إحدى عمليات سيناء الإرهابية! كيف تعتقد بأن يوسف مازال حياً!

فتوجهت سُعاد بالسؤال لهَنا:

- يوسف من؟

- خطيبي.

- وكيف له أن يرد عليكِ وهو متوفي منذ عام ونصف! ماذا بكِ يا هَنا؟

انهارت هَنا في البكاء الشديد وأخذت تصرخ، وتقول:

- يوسف لم يمت، أنتِ تكذبين عليّ.

حاولت سُعاد تهدئتها، واسرعت الأم إلى غرفة ابنتها فزعة على صراخ ابنتها.

قالت هَنا لأمها:

أخبري طنط سُعاد أن يوسف لم يمت إنه حي يا أمي، هو وعدني انه لن يتركني ابداً.

ثم سقطت مغشية عليها.

امسكت الأم ابنتها وهي تبكي وتقول:

- لا تتركيني يا هَنا.

وفي نفس اللحظة اتصلت سُعاد بالطبيب للحضور، والأم تحاول أن تيقظ ابنتها من اغمائها، ثم حملوها إلى سريريها.

دق الجرس واسرعت سُعاد لفتح الباب، بينما كانت الأم بجانب ابنتها تبكي، دخل الطبيب مسرعا وأتم فحصها، فوجد انها مصابة بارتفاع حاد، في ضغط الدم واعطاها الطبيب حقنة مهدئة للأعصاب.

خرجت الأم وسُعاد مع الطبيب، وحكوا له ما حصل، فقال الطبيب انها يجب أن تعرض علي طبيب نفسي، لأنها من المحتمل انها سوف تكون مصابة بانفصام في الشخصية لعدم تصديقها موت خطيبها.

انصرف الطبيب، ودخلت الأم إلى ابنتها وتبعتها سُعاد، أخذت تنظر الأم إلى ابنتها في حزن شديد وتقبل يديها وتقول لها: لا تتركيني.

أخذت سُعاد تطمئنها وتقول لها:

- لا تقلقي، ستكون بخير، فلتتركيها لترتاح قليلا.

ولكن الأم لم تترك ابنتها حتى تأكدت من نومها، وخرجا الاثنان من غرفتها.

والحقيقة أن هَنا مستيقظة وفضلت تمثيل النوم حتى يتُركاها بمفردها، وعند خروجهم من غرفتها وأخذت تبكي وامسكت هاتفها، وفتحت الحساب الشخصي الخاص بخطيبها فهي تعرف الرقم السري له، كما كان هو يعلم رقمها السري، طوال العام ونصف وهي ترسل الرسائل لنفسها وترد عليها وأحيانا لا ترد، مفضلة انه مبتعد عنها أفضل من أن يكون فارق الحياة بأكملها ....

" ما أدراكِ ربما في الحب القادم كان نصيبك القمر. "

– أحلام مستغانمي

حب عبر الأثير

جلست ياسمين كعادتها تتابع صفحتها الإلكترونية بملل شديد، فتلك هي متعتها الوحيدة بجانب سماع الموسيقي وقراءة الكتب التي تحبها وتعشقها كثيراً، حيث تعتبر الكتاب صديقها الوحيد، والموسيقي هي كل حياتها.

ياسمين فتاة جميلة واسعة العينين يظهر على ملامحها البراءة في العشرون من عمرها، في كلية الهندسة، وهي الآن في اجازتها للعام الثاني لها، مثقفة بحكم قراءتها للكتب، من عائلة محافظة تلتزم بالعادات والتقاليد القديمة حيث لا خروج مع صديقاتها ولا عمل صدقات مع الشباب خوفاً عليها في المقام الأول. في الساعة الثالثة والنصف فجراً كانت تتابع الأخبار من خلال صفحتها الإلكترونية، انتظاراً لصلاة الفجر، كما تفعل كل يوم، وأثناء تصفحها إذا بطلب صداقة مرسل إليها، فتحت إشعار طلب الصداقة كان مُرسل من شاب اسمه أحمد محمود.

كانت ياسمين لا تقبل طلبات الصداقة من الأشخاص الذين لا تعرفهم وخصوصاً الشباب؛ ولكن الفضول دفعها لفتح صفحة أحمد الشخصية والنظر إلي صورته وقراءة معلوماته الشخصية، وتصفح منشوراته.

وأعجبها صورته، وأخذت تبتسم وهي تشاهد منشوراته المثيرة للضحك ومنشوراته الدينية، والوطنية والتي تبين مدي حبه لوطنه.

أحمد محمود، شاب عريض المنكبين، مفتول العضلات، طويل القامة، في الثانية والثلاثين من عمره، صاحب أحد الصالات المشهورة لألعاب القوي والرياضة.

كانت ياسمين في حيرة هل تقبل الصداقة، أم لا كانت خائفة؛ لأنها لم تفعل ذلك من قبل وأن اهلها لو عرفوا سوف يغضبون منها، ولكن قررت قبول الصداقة وأن تتخذ قرارتها من نفسها مبررة انها لن ترسل إليه أي رسالة، وانه لن يضر من قبوله وبالفعل قبلت الصداقة، وأثناء ذلك، سمعت آذان الفجر فاتجهت للوضوء والصلاة وأخذت تقرأ بعض الصفحات من القرآن الكريم، ثم خلدت إلى النوم.

عند استيقاظها في الصباح ساعدت والدتها في أعمال المنزل، وكانت تفكر فيما فعلته ليلة البارحة أكان صائباً أم لا، ثم جلست مع أسرتها المكونة من والدها ووالدتها وأخيها الأكبر منها يحيي لتناول طعام الغداء.

بعدها فتحت حاسوبها الخاص بها، وبدأت في تشغيل موسيقاها المفضلة لبيتهوفين، فكثيراً ما تعشق موسيقاه، وفتحت صفحتها الشخصية إذا برسالة مُرسلة إليها، انها من أحمد الذي قبلت صداقته ليلة البارحة، ومكتوب في الرسالة "السلام عليكم".

عندما رأت ياسمين الرسالة كانت ضربات قلبها تدق سريعاً، لا تدري ماذا تفعل؛ لكنها تشجعت وقررت الرد وبدأت في التعارف عليه، وحينها بدأ التعارف بين أحمد ياسمين، وأخذا يقتربا من بعضهما شيئاً فشيئاً، لقد محي أحمد، الوحدة التي كانت تعيش فيها وعوضها عن كثير من الأشياء كان يستمع إليها ويهتم بها، واعترف بحبه لها، فشعرت بجمال الدنيا وبهجتها؛ ولكن الغريب في هذا التقارب انه لم يطلب منها يوماً رقم هاتفها لسماع صوتها أو حتى صورتها، وهذا ما أسعد ياسمين؛ لأنها لا تتمني أن يأتي اليوم ويطلب منها ذلك بالتأكيد لن تفعل ذلك بحكم عاداتها وتقاليدها. وكان الأغرب من كل ذلك هو اختفائه عنه بدون أسباب؛ ولكن عندما يعود كان يعوض كل هذا الغياب بالاهتمام والحب والمودة.

لكن هذه المرة الغياب كان أطول كثيراً، ثلاثة أشهر لا تعرف عنه شيئاً، يبدو على ملامحها القلق والحزن، لم يكن معها رقم هاتفه لتطمئن عليه، فاعتقدت إنه ابتعد عنها، ولا يود الحديث معها مرةً آخري، وانه انشئ حساباً آخر؛ ولن يظهر ثانيةً، وقررت النسيان معللة انه مجرد رجل افتراضي لم تكن تعرف عنه الكثير. وفي أحد الأيام أثناء تصفحها لصفحتها الشخصية وجدت إشارة لأحد اصدقائه له في منشور، موجود فيها صورة أحمد في أحد الجرائد المشهورة نائم على سرير ويده اليسرى

مبتورة بأحد المستشفيات وبجانبه القائد العام للقوات المسلحة وصديقه كاتباً تحت الصورة:

"حمداً لله على سلامتك يا سيادة الرائد أمجد، نحمد الله على وجودك بيننا وبين زوجتك وأولادك أحمد ومحمود، داعين الله أن يتم شفاءك، لقد كنت اسداً في المعركة لم تستلم ابداً، رحم الله جنودك نحتسبهم عند الله شهداء"

كانت ياسمين جالسة أمام الحاسوب تحدث نفسها غير مستوعبة الأمر؛ لماذا كذب عليّ؟ من أمجد هذا؟! مستحيل أن يستهين بي إلى هذه الدرجة. فتحت صفحة أحمد الشخصية أقصد أمجد، وبدأت شكوكها تتبدل إلى حقيقة أمجد رائداً بالجيش وقائد الكتيبة ٣١٩، أصيب ببتر في يده اليسرى في أحد اشتباكات في أحد العمليات الإرهابية الأخيرة، واستنتجت انه انشئ حسابه الخاص على موقع التواصل الاجتماعي بأسماء أولاده. أرسلت إليه رسالة أخيرة:

"لماذا اخفيت عني حقيقتك، لقد تعلقت بك كثيرا، وأحببتك حقا"

جاءها الرد على رسالتها بعد أسبوعين من أرسالها له؛ قائلاً لها:"

لم أكن أقصد خداعك، أنا أحبتك بصدق، وتعلقت بكِ حقاً، ولكن مشكلتي مع زوجتي بسبب ابتعادي عنها بالأيام وأحيانا بالشهور غير مقدرة غير

ظروف عملي، وكنت غير قادر علي الظهور بشخصيتي الحقيقة بسبب ظروف عملي، أطلب منكِ السماح والغفران."

قررت ياسمين عدم الرد على الرسالة، وقلب هذه الصفحة ونسيانها؛ لأن ما بني علي افتراض ووهم يظل افتراضيا للأبد.

" حبي ليس مقعدًا في حديقة عامة! تمضي عنه متى شئت .. وترجع إليه في أي وقت. "

– غادة السمان

العشق القاتل

في الساعة الثانية عشر ظهراً، أمام تحقيقات النيابة في قسم المعادي وقفت أسيل، قوية، صامدة، في عينيها علامات النصر لا تشعر بالندم ابداً مما فعلته، أحيانا انكسار القلب يجعلك شخصا اخر قاسيا، تحاول أن ترد كرامة قلبك.

سألها الضابط أحمد شكري وتبدو عليه علامات التوتر والعرق على جبينه ويظهر علي وجهه ملامح الدهشة مما فعلته أسيل:

- لماذا قتلتي مصمم الأزياء سليم مختار، أقصد تعذيبك له بهذه الطريقة البشعة، أري انه لا يبدو عليكِ الندم؟

باستهزاء ترد أسيل:

- ولما الندم، قتلته؛ لأنه استغل طيبتي، كان يعلم مدي حبي، واستعدادي للتضحية من أجله؛ خيانته لي هي التي جلبت له القتل...

ثم صمتت برهة:

- لقد ابتعد عنّي دون سبب كنت طوال الوقت ودودة، حنونة، أحاول إسعاده بكل الطرق، ثم يبتعد بدون أن يسمح لي بسؤاله عن سبب ابتعاده ثم اكتشف بعدها انني كنت مجرد تسلية.

ثم بغضب عارم وانفعال شديد:

- انه جبان، جبـــــان، لقد خذلني، حتى لحظة الفراق بين الحبيبين حرمني منها.

وظلت تبكي بصوتاً عالي، فشعر أحمد، ببعض الشفقة عليها وأمرها بالجلوس وشرب كوب الماء الذي أمامها على مكتبه:

- حسناً اهدئي الآن، حتى نستطيع أن نكمل المُحضر.

شربت أسيل كوب الماء ويديها ترتعش، وفي تلك الأثناء أشعل الضابط أحمد سيجارة وبدأ يدخنها، ثم استطرد في الحديث قائلاً:

- لكن الخيانة ليست مبرر قوي للقتل، وخصوصاً قتلك له بتلك الطريقة الشنيعة، لا أصدق ما اقرأه أمامي لا شك أن تقرير الطب الشرعي مخطئ!!

ثم ابتلع ريقه:

ثم ضحك باستهزاء ما هذا الهراء، لابد أن الطب الشرعي يبالغ في ذلك.

ثم نظرت أسيل إليه نظرة خبيثة يوجد فيها الفخر، وقالت:

- لا لم يبالغ هذا حدث بالفعل، هو يستحق ذلك وأكثر!!!

شعر أحمد ببعض التوتر، وفك رابطة عنقه وأول زر من قميصه الأبيض، وأطفأ سيجارته، وقال:

-ولما كل ذلك؟

نظرت أسيل له مرة آخري وأخذت نفسا طويلاً شعوراً بالملل، وقالت:

- ألم أقل لك انه قام بخيانتي؟!

انفعل أحمد وقام من مكانه، وخبط المكتب بقوة، قائلاً لها:

- لكن هذا ليس مبرراً للقتل!

ثم حاول أن يهدأ فإن انفعاله لن يفيد بشيء، وعاد إلى مكانه، ونظر إليها، وقال:

- أريد أن أعرف كل شيء بالتفصيل كيف تعرفتي على سليم، وكيف خانك، وما هي الفعلة الشنيعة التي فعلها حتى تقتليه بهذه الطريقة البشعة.

أرجعت أسيل ظهرها إلى الوراء، واعتدلت في جلستها، وأخذت تسترجع ذكرياتها معه وتتذكر كيف تعرفت على حبيبها سليم، وكيف أخرجها من يأسها واكتئابها الشديد بعد وفاة والدها وفسخ خطوبتها مع محمود - خطيبها السابق - الذي كان ارتبط بها بسبب نفوذ والدها، حيث كان والدها في إحدى الشركات العالمية للبترول، وكان يتطلع إلى الوصول

لمنصب أعلي وعند وفاته قرر الابتعاد عنها دون أي تردد فعلمت حينها انه لم يحبها وكان قريباً معها لمصالحه الشخصية فقط.

ثم بدأت أسيل تسرد قصتها مع مصمم الأزياء سليم مختار، عندما ذهبت إلي أحد عروضه مع صديقتها نوران وكانت صديقة سليم ايضاً، وكانت أسيل في قمة الدهشة والانبهار عندما كانت تشاهد العرض وكيف كانت مبتسمة طوال الوقت لهذا العرض الرائع. أسيل فتاة شديدة الجمال ذو الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين، نحيفه، خريجة كلية الفنون التشكيلية، تحب الرسم كثيراً، وتعزف آلة الكمان، في الخامسة والعشرين من عمرها، اما نوران صديقتها المقربة كانت في مثل عمرها، وكانت تقريباً في مثل جمالها عدا شعرها الأسود وعينيها العسلية.

كانت تجلس أسيل ونوران بجانب بعضهما في الصف الأول من عرض الأزياء وتبدو على وجه أسيل علامات الانبهار من شدة جمال العرض فقاطعتها نوران صديقتها:

- هل اعجبكِ العرض؟

بسعادة شديدة قالت أسيل:

- رائـــــع، لم أري في جماله، ومتناسب مع تراثنا العربي.

ثم نظرت نوران بثقة لأسيل:

- ألم أقل لكِ؟

ضحكت أسيل بصوت عال، وقالت لها:
- تعجبني ثقتك الدائمة.

وفي تلك الأثناء خرج سليم بجانبه فتاه ترتدي فستان زفاف وخلفه باقي عارضات الأزياء يسيرون بخفة ورشاقة، ثم تقدم في مقدمة المسرح يحيي الجمهور واصدقائه ويشكرهم علي قدموهم وتشجيعهم له، ثم لفت نظره نوران وهي تحييه فابتسم لها، ونظر إلى أسيل حيث لفت نظره رقتها وجمالها وفستانها الأنيق، ثم غمز لها وسار مره آخري خارج المسرح.

أحست أسيل بالإحراج من تصرفه وخصوصًا انها لا تعرفه، بينما بدا علي وجه نوران الغيرة الشديدة. وخصوصاً أن سليم شاب شديد الوسامة، ومصمم أزياء شهير تأتي إليه الفنانات لتصميم فستانيهم، كان في الرابعة والثلاثين من عمره، كان الفتيات تقول من حولها أثناء العرض أن من يحبها سليم فقد ضحكت لها الحياة؛ وأسيل لم تكن تبالي بكل ذلك فهي لا تفكر في الارتباط الآن؛ ولكن في الوقت ذاته أعجبها شخصيته وحديث الفتيات عنه ونظرة نوران له والتي تدل بمدي إعجابها به هي الأخرى.

قاطعها الضابط أحمد، وأمر الكاتب بالتوقف عن كتابة المُحضر، قائلاً:
- وماذا يفيد ذلك في القضية؟

أرجو أن تتحدثي عن سبب قتلك له. ردت أسيل والدموع تذرف منها: ولكن هذا هو الموضوع دعني أخبرك بكل شيء.

بملل شديد رد الضابط أحمد: حسنًا أكملي ثم أشار إلي الكاتب بمتابعة كتابة ما تقوله أسيل. ثم تابعت أسيل الكلام:

- من بعد الحفل تعددت لقاءاتنا، وخصوصاً أن نوران كانت تلح عليّ بالخروج إلى أحد الأماكن العامة للتنزه، وكنا نصادف أن بها سليم، أو لم تكن صدفة، وهذا تدبير نوران ... لا أعرف؛ لكن في كل مرة أشاهد فيها سليم كان يزداد إعجابي به وانبهاري بشخصيته. اتذكر ذلك اليوم عندما كنتُ مع نوران في حفل زفاف صديقتنا مي، وعندما رأيت مي بفستانها الأبيض شعرت بالفرح الشديد، وقلت لنوران بصوت عال أن تصميم فستانها رائعاً جداً. ووجدت صوتاً من خلفي، يقول:

- أنا من صممته!

ألتفت للوراء أنا ونوران، فوجدنا سليم يقف خلفنا، فابتسمت، ومدت نوران يديها لتصافح سليم؛ وقالت:

- مسرورة بوجودك هنا.

فرد سليم:

- وأنا ايضاً.

وهو مازال ينظر إلى أسيل ويبتسم، ثم صافح أسيل، ونظر في عينيها، وقال:

- مسرور أن تصميم الفستان أعجبك.

ارتبكت أسيل:

- أجل انه رائع جداً.

إذاً هل تسمحين لي بتلك الرقصة، وقبل أن ترد أسيل عليه بالموافقة أو الرفض، جذبها من يديها، وعلى أنغام الموسيقى الرومانسية الهادئة، كانوا يرقصون معاً ويتحدثون، ونوران يبدو عليها الغيرة الشديدة. وبدأ الحديث مع بعضهما لأول مرّة على انفراد. نظر سليم إلي أسيل مبتسماً، يسألها:

- لما كل هذا الخجل؟

اجابته أسيل:

- لم أرقص مع أحد من قبل.

- كنت أود أن أعترف لكي بإعجابي الشديد بكِ، لم تكن تسنح الفرصة من قبل لأقول ذلك، أظن انها تلك اللحظة المناسبة.

شعرت أسيل بالارتباك الشديد، ثم ابتعدت عنه قائلة:

- عليّ أن أذهب الآن.

أمسك سليم يديها وقال:

- أسيل أنا احبك وأود أن أعرف قرارك الآن.

نظرت إليه، وقالت:

- أنا لا أود الارتباط بأحد، ولست مستعدة لذلك الآن.

- هل تخافين مني؟

- ليس منك؛ ولكن أخاف من الحب ذاته، أكره لحظات الفراق، والبعد، وعدم الاهتمام.

- ولما كل هذا التأكيد بأنني سوف ابتعد عنكِ، جربي ولن تندمي.

صمتت قليلاً، ثم قالت له:

- يمكن أن نكون أصدقاء، ونترك الأيام ماذا سوف تفعل بنا.

تنهد سليم ثم تابع حديثه: حسناً؛ ولكن احذري فحديثك معي سيصيبك بالحب.

ضحكت أسيل، وقالت:

- من عليه الحذر فعندما احبك، فابتعادك عني سيصيبك بالقتل.

تبادل كلا منهم رقم الهاتف حتى يستطيعا الحديث مع بعضهما.

قاطعتهما نوران، وهي تنظر إلي سليم بغضب شديد:

- علينا أن نذهب الآن يا أسيل، لقد تأخر الوقت.

شعرت أسيل بغضب نوران؛ ولكن فضلت ألا تسألها حتى لا تؤثر على سعادتها. وعقب وصولها إلى المنزل أرسل إليها رسالة نصية مكتوب فيها:

"أنتِ حلمي الوحيد الذي أود تحقيقه، ونصفي الآخر الذي لن يكتمل إلا بكِ." ظل سليم يغزل شباكه على أسيل حتى وقعت في الفخ لم تحبه فقط بل عشقته، أصبح هو كل حياتها يشاركها أحلامها وحياتها ومشاكلها وكل شيء في الحياة واعتبرته نصفها الآخر الذي اكتملت به.

وفجأة...

اختفي سليم، واختفي معه الحلم الجميل الذي كانت تعيش فيه، ولم يعد يهتم بها، ولا تفهم سبباً لذلك الابتعاد، أرسلت إليه عشرات الرسائل بل المئات، تحاول البحث عنه في كل مكان، حتى النوم لا تستطيع أن تنام إلا بمهدئ يساعدها على الاسترخاء والنوم. وعندما وجدته رأته جالساً مع صديقتها نوران في إحدى المقاهي الراقية، شعرت بالصدمة من وجوده معها، وقررت الذهاب إليهم.

شعرت نوران بالتوتر والقلق حينما وجدتها قادمة نحوهم، وفي نفس الوقت حاولت أسيل أن تتمالك اعصابها، ثم سألتهما:

- ماذا تفعلان هنا؟

ثم نظرت إلي سليم وعلي ملامحها الإرهاق والمعاناة من ابتعاده عنها، وسألته:

أين أنت؟ ما سر هذا الابتعاد؟ أنا لم أفعل شيئًا لك لكل ذلك؟

ثم نزلت من عينها دمعة، فقالت لها نوران:

- اهدئي يا أسيل، لا تبكي هكذا.

ثم رد سليم ببرود شديد:

-انا مشغول قليلًا فقط، لم ابتعد عنكِ كما تظنين.

ظلت تبكي أسيل، فغضب سليم وصرخ في وجهها:

- لقد سئمت من تصرفاتك هذه!

وتركهما وانصرف. ركضت نوران وراء سليم تحاول تهدئته، وتركت صديقتها ولم تبالي بها، ولحسن حظ أسيل تركت نوران هاتفها الخلوي، فسمعت صوت رسالة مرسلة من سليم لنوران، وعندما رأت أسيل تلك الرسالة لم تتمالك نفسها، وأمسكت بالهاتف، وفتحت الرسالة، وكان مكتوب فيها:

"أرجوكِ لا تنزعجي يا حبيبتي انني تركتك، لقد انزعجت من تصرف أسيل، آسف يا نصفي الآخر."

في تلك الأثناء كانت نوران قادمة؛ لإحضار هاتفها الذي نسيته، فوجدت أسيل ممسكة به، فعرفت انها علمت كل شيء، نظرت نوران لها بشفقة كبيرة، وقالت:

- لكِ كامل الحق في الانزعاج مني، وأن تقولي انني صديقة خائنة، ولكن سليم اتفق معي انه سوف يقوم بخطبتي، وقال انه سوف يفهمك كل شيء؛ لم أكن أعرف انكِ لا تعلمين، أرجوكِ يجب أن تقدري انني احبه من قبل معرفتك به.

انهارت أسيل في البكاء وتوقفت عن الحديث لتذكرها ذلك الموقف، فأحس الضابط أحمد بالشفقة نحوها، قائلاً لها:

- حسناً اهدئي دعينا نكمل، كيف قمتِ بقتل سليم؟

مسحت أسيل دموعها وتابعت الحديث:

- عند سماعي لذلك الحديث من نوران، لم يكن في عقلي سوي الانتقام إما أن يكون سليم لي أو يكون مصيره القتل حتى لا يكون لفتاة آخري غيري. تمالكت اعصابي، وهنأت نوران، وقلت لها انني لست حزينة بسماع ذلك الخبر، انها صديقتي الوحيدة والمقربة، أحست نوران بالريبة مني، وسألتني:

- لستِ حزينة حقاً! فاحتضنتها، وقلت لها:

- كان يجب عليكِ أخباري من قبل. لكن دعيني الآن أذهب إلى سليم أخبره بسعادتي بذلك الخبر، اتصلي به قولي له انني أريد أن اقابله لآخر مرة، لأرجع له هداياه، فهو لن يرد عليّ.

شعرت نوران بالفرح، وقالت لها:

- حقاً أنتِ صديقتي الصدوقة التي أحبها، ولن ابتعد عنها على الإطلاق.

وأثناء اتصال نوران بسليم من هاتفها النقال، وكانت تحكي بفرحة شديدة ما قالته أسيل لها، فأخذت أسيل الهاتف من نوران بسرعة، وقالت له:

- أود أن اقابلك مرة واحدة فقط، لإرجاع هداياك، سوف آتي إلى الڤيلا إليك عند الساعة الخامسة مساءً.

وأغلقت الهاتف. ذهبت أسيل إلى بيتها وهي تعد العدة وتخطط ماذا سوف تفعل، استعدت أحسن استعداد ولبست فستاناً أنيقاً وأمسكت حقيبتها وفتحتها، ووضعت بها المنوم الذي كانت تأخذه ليساعدها على النوم عندما كان مبتعداً عنها، وذهبت إلى المطبخ وجمعت جميع السكاكين الموجودة داخل حقيبتها بما فيهم الساطور، وحبل سميك، وفي يدها الآخر حقيبة بها جميع هدايا سليم، التي أحضرها لها.

ذهبت إليه، وطرقت باب الڤيلا، وفتح لها سليم؛ لأنه يعيش وحيداً، ولا يحب وجود الخدم عنده فهو يفضل أن يكون على حريته. دخلت أسيل وأغلق سليم الباب، ثم جلسوا. نظرت أسيل إلي سليم بابتسامة عريضة

أنيقة كأنها لا تبالي بشيء، لقد أحضرت لك جميع هداياك حتى لا يكون هناك ذكري تجمعني بك مرة آخري. سليم مستغرباً أسيل أشد الاستغراب:

- لا أصدق ما اسمعه، أراكي سعيدة، وهذا دليل إنكِ لم تحبيني من الأساس.

ابتسمت أسيل:

- دعنا من كل هذا أود أن اتناول فنجان من القهوة معك، هل سمحت لي؟

- بكل تأكيد.

هم سليم بالوقوف فقالت أسيل:

- لا أود أن اصنعه بنفسي لك أستريح أنت.

أخذت أسيل حقيبتها، وذهبت إلى المطبخ، وأعدت القهوة، ووضعت في فنجان سليم قرصين من المنوم، وخرجت من المطبخ وهي مبتسمة، ووضعت الفنجانين على الطاولة، ثم جلست، ونظرت له نظرة خبيثة وقالت له:

- هل تحب نوران حقاً؟!

شعر سليم بالارتباك، وأخذ يتلعثم بالكلام:

- ليس كما تظنين، انها فقط تفهمني، وتسمعني، أشعر بالارتياح ناحيتها فقط..

ثم أمسك سليم بفنجان القهوة من آثر الارتباك وأخذ اول رشفة من فنجانه، أمسكت أسيل، وهي تشرب فنجان القهوة وتنظر إلى سليم بترقب وهو يشرب فنجانه. أمسك سليم رأسه وأحس سليم بثقل شديد بها وبعد راح في نوم عميق.

نهضت أسيل من مكانها، وقامت بجر سليم إلي المطبخ، كانت تشعر بصعوبة بالغة في نقله؛ ولكن شيئاً فشيئاً حاولت بكل قوتها حتى نقلته. وعندها أغلقت باب المطبخ واسندته عليها، وقيدته بالحبل الذي احضرته معها، وانتظرت حتى يصحو من غفوته، خمس ساعات لم تمل من النظر إليه، ولا الحديث معه بالرغم من انه لا يسمعها، ثم فتح سليم عينيه فوجد نفسه مقيد بالحبل وأسيل أمامه. ثم صرخ بها قائلاً:

- ماذا تفعلين هل جُننتِ؟ فكِ قيدي حالاً وإلا ستدفعين ثمن فعلتك هذه!

نظرت أسيل له وقالت:

سأفك قيدك، ولكن بشروط؟

سليم بامتعاض شديد:

- ما هي؟

- أن تبتعد عن نوران، وتكون لي أنا فقط.

ثم اقتربت منه ووضعت وجهه بين كفيها، وبصوت حنون:

- أنا التي احبك، وليس هي، ولن تجد شخص آخر يحبك مثلي، أنا نصفك الآخر، ألم تقل لي كذلك؟

ضحك سليم بسخرية لاذعة:

- أسيل، عليكِ أن تدركي حقيقة واحدة، وهي انني لم أعد احبك، وهذا هو النصيب، لقد انتهي بنا إلى ذلك الحد، وعلينا أن ترضي بذلك.

نظرت أسيل له بغضب، وصرخت في وجهه:

- لا، إذا لم تكن لي، لن تكون لغيري.

وقامت بحركة سريعة جداً وفتحت جميع أدراج المطبخ، باحثة على شريط لاصق، ثم وجدت واحداً، وكممت فمه

وقالت بهيسترية شديدة:

- أنت لن تكون لغيري يا سليم، أتسمعني جيداً.

ثم تابعت: سوف أدخلك بداخلي احفظك عن عيون كل من يراك، لن يسمعك، أو يشعر بك أحداً غيري.

ثم جذبت حقيبتها من جانبها، وأخرجت منها السكاكين واحدة تلو الأخرى، وسليم ينظر إليها برهبة وخوف شديد ولا يستطيع أن يصرخ بصوت مرتفع؛ لأنه مكمم ثم نظرت إليه بحنان، وقالت:

- لا تخف يا نصفي الآخر، سوف يكتمل النصفان في جسد واحد. سوف اقطعك، وأكلك بالكامل، وفي النهاية سوف تكون معي أشعر بك وأنت

معي، وبالتأكيد روحك ستدخل بِداخلي؛ لأن روحك تشبه روحي، وتعلم انني أحبها، وأنا الوحيدة القادرة على الاعتناء بها، وفي النهاية سنكون معاً للأبد.

ثم صرخت أسيل من الفرحة، بينما سليم يبكي لا يدري ماذا يفعل:

- ولكن كيف سأكلك، لن أكون قادرة على تذوق لحمك وعظامك هكذا!

ثم صمتت برهة، وقالت بصوت مرتفع:

- أجل سوف اطهيك وأتلذذ وأنا أكل قطعة قطعة منك.

أمسكت سكين من السكاكين التي احضرتها معها، وقالت:

- من أين سأبدأ؟

خلعت قمصيه، وقطعت لحم ذراعه ببطء شديد وسليم يصرخ من شدة الألم والدموع تذرف كثيراً ويحاول الابتعاد عنها، ولكن دون فائدة، ثم قالت له:

- اهدأ يا عزيزي سوف ينتهي كل ذلك العذاب قريباً.

قطعت أجزاء من لحم يده، والدم ينزف منه وأرضية المطبخ امتلأت بالدم ويد أسيل ايضاً، ثم وضعت اصبعها في فمها تتذوق طعم الدم، ثم قالت بمتعة شديدة:

- انه لذيذ، كيف سيكون طعم لحمك.

وامسكت بقطع اللحم التي قطعتها، وقالت:

- وهذه القطع سأشويها.
ووضعت اللحم على الشواية واشعلت النار وبدأت في طهيها، ثم تابعت:
- دعنا نكمل التقطيع حتى يتم اللحم نضجه.
وأمسكت السكين مرة آخري، وقالت:
- اما الآن سوف نفتح مكان القلب وأكل القلب هكذا، أن متأكدة أن طعمه سيكون لذيذاً، وأود أن يكون أول شيء يدخل جوفي.
كانت قوة سليم ضعفت؛ ولكنه كان ينظر لها وهو يبكي وكأنه يستعطفها كي ترحمه، وأسيل لا تبالي لكل ذلك. وبالفعل أمسكت السكين ثانيةً وهمت بالفتح ناحية قلبه وهي تقطع بكل قوة لكي تصل إلى قلبه وبالفعل وصلت إلى قلبه؛ ولكن عندما خلعت قلبه كان سليم قد فارق الحياة وأمسكت بقلبه وحاولت أكل قطعه منه لم تستطع ظلت تحاول حتى بالكاد أكلت قطعه صغيرة منه، ثم قالت:
- لا يهم سوف اطهيه هو الآخر.
وفي تلك الأثناء، كانت نوران اتصلت بسليم عشرات المرات، ولكن دون جدوى، فشعرت بالقلق عليه، فقررت الذهاب إلى بيته للاطمئنان عليه، ظلت تتطرق الباب والجرس في آن واحد. وحينها قامت أسيل، وأمسكت هاتف سليم رأت نوران وهي تتصل به، فأدركت انها هي من تتطرق

الباب بهذه الطريقة، ثم تأكدت عندما سمعت صوت نوران، وهي تنادي عليه:

- سليم أنت هنا، أريد الاطمئنان عليك.

قررت أسيل عدم فتح الباب، ثم توجهت نحو الباب، وقالت لها: ما الذي أتي بكِ إلى هنا، سليم لم يعد يريدك، سوف نكون أنا وهو معاً إلى الأبد، أتسمعين ذلك؟ لقد قاربت من اكله وسوف يكون معي وبداخلي إلى الأبد.

في تلك الأثناء اتصلت نوران بالشرطة، وقامت باقتحام الڤيلا، والقبض على أسيل، وجسدها ملطخ بالكثير من الدماء.

الضابط أحمد، والكاتب صامتان، وينظرون إليها في ذهول شديد، لم يقابل أحمد قضية مثل هذه، ويظهر على جبينه العرق، وفي عينيه القلق والخوف. ثم قال لها بتردد شديد:

- هل جننتٍ؟

ثم نظرت له، وقالت:

- وهل العشق جنون، أنا أردت فقط أن أظل معه إلى مدي الحياة.

ثم نادي الضابط أحمد علي الشاويش وأمره بأخذ أسيل إلى زنزانة الحبس. ثم نظر إلي الكاتب وقال له أكتب:

- أمرنا نحنُ بالكشف على أسيل للتأكد من صحة قواها العقلية، وأغلق المُحضر في ساعته وتاريخه.

" الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل وإن اللبيب

بمثلها لا يخدع. "

– الحسن البصري

أحلام واقعية

فتحت باب شقتي بالدور الثالث، كالعادة وجدت زوجتي الحبيبة تستقبلني بابتسامة رقيقة، قائلة لي:

-حمداً لله على سلامتك.

فقبلت رأسها، ثم وضعت حقيبتي على الطاولة، وطلبت منها إعداد الطعام لكي نأكل سوياً، فلقد اعتادت زوجتي أن تنتظرني حتى أعود لنتشارك معاً تناول الطعام كما نتشارك في الأحلام، وخصوصاً بعد وفاة ابننا الوحيد "علي" وهو في عمره السابع نتيجة مرضه بسرطان في الرئة ولكننا لم نستطع إنقاذه فعندما اكتشفنا اصابته بذلك المرض اللعين كان الوقت قد فات مر ثلاث سنوات على وفاته، حاولنا في تلك السنوات إنجاب أطفال؛ ولكن زوجتي كانت تفرض بسبب تعلقها الشديد بعلي وخوفاً من فراق ابن آخر لنا كانت تقول لي دائماً:

"أرجوك يا وائل، انني لست قادرة أن أفقد طفلاً آخر فعندها سوف أفقد عقلي!"

فمنذ ذلك الوقت وأنا لا أريد أن اتركها وحيدة، انجز عملي سريعاً وأعود إليها اجلس معها، فزوجتي فريدة لا تعمل وأنا لا أفضل بأن تعمل، دائماً ما أقول لها انها ملكتي وأميرتي التي يجب أن تدلل وتنفذ جميع أوامرها في الحال، فتضحك بخجل شديد، فأنا اعتبرها ابنتي الصغيرة المدللة.

ذهبت فريدة لإعداد الطعام، بينما أنا توجهت إلى غرفة علي، فلقد اعتدت أن أضع ملابسي في غرفته حتى ادخل غرفته وأقرأ له الفاتحة والدعاء له وأقبل صورته الكبيرة الموضوعة على الحائط.

ارتديت ملابسي، وتوجهت إلى المطبخ لمساعدة فريدة في وضع الطعام على الطاولة، وبعد تناول الطعام، جلست أنا وزوجتي نشرب الشاي سوياً ونشاهد التلفاز، ونحكي لبعضنا تفاصيل يومنا، وبدأت احكي لها اجتماع المدير اليوم وكيف كان اجتماعاً مملاً للغاية، فأنا أعمل مهندساً معمارياً لأحد شركات الهندسة والتعمير الكبرى، ثم سألتها:

- كيف كان يومك اليوم؟

قبلت فريدة يدي، ونظرت في عيني، وقالت:

- أعددت طعام الغداء الذي يفضله زوجي العزيز، ورتبت المنزل حتى يأتي زوجي حبيبي ويري المنزل مرتباً، ثم بدأت اتابع مسلسلاتي المفضلة وأنا أفكر بك.

كنت اضحك وفريدة تتحدث إليّ؛ ولكني لم انعم بذلك الهدوء بسبب ماهر ونهي جيراننا فإن خلافاتهم لا تنتهي ابداً. فقلت لها:

- علينا أن نراعي حالاتهم ايضاً.

هم مثلنا؛ مات طفلهم مهند وهو في الحادية عشر من عمره، أثناء إجراء ماهر له عملية خطيرة في قلبه، وتوفي أثناها، ومن يومها نهي تتهم زوجها انه سبب في موت ابنه وتحمله نتيجة موته.

ماهر طبيب جراح ماهر كما اسمه تماماً، في الأربعين من عمره، ولكن عندما تراه تظن انه في السبعون من عمره، نتيجة حزنه الشديد على ابنه، فعندما مرض ابنه قرر أن يجري له العملية من شدة خوفه عليه؛ ولكن قدر الله أن يموت خالد ابنهم أثناء العملية، وزوجته لا ترحمه، ودائماً كثيرة المشاكل معه، وتطلب الطلاق دائماً؛ لكن علينا أن نراعي ايضاً شعورها بالألم الشديد على فراق ابنها. تنهدت فريدة ثم قالت:

- أجل فأنا اشعر بها.

نظر وائل إليها بحزن، ثم حاول أن ينسيها، وقال:

- هل سنظل نتحدث هكذا طوال الليل؟ أنا اشعر بنعاس شديد، وأريد أن أخلد للنوم كي أستريح، فلدي يوم طويل في العمل غداً.

وبالفعل اتجه وائل وفريدة إلى حجرة النوم لكي يناموا، وعندما أغمض وائل عينه، راح في نوم عميق، وبدأ يحلم، ويظن أن ما يحلم به حقيقي.

استيقظ وائل فوجد نفسه نائم في وسط شارع طويل وواسع به الكثير من البيوت والعقارات العالية، ماعدا منزل واحد لونه أبيض قديم يبدو من تصميمه وشكله انه ذات تراث قديم، ثم قال بفزع شديد:

- ما الذي جاء بي إلى هنا؟ أنا اتذكر جيداً انني كنت نائم على سريري بجانب زوجتيّ!

ثم تقدم بضع خطوات ناحية المنزل القديم فوجد أن بابها الأبيض يفتح أمامه، ولا يدري من فتحه، دخل وائل البيت مظلم، وشكله مخيف ومرعب، فقد وجد في الطابق الأول جميع الأثاث مغطي بقماش أبيض مثل الكفن؛ ولكن عليه الكثير من التراب فاستنتج أن هذا المنزل مهجوراً. شعر وائل ببرد في اطرافه وبدأ يرتعش، صعد وائل الدور الثاني، وكان هناك ثلاثة غرف واحدة على الجانب الأيمن، والثانية في الجانب الأيسر والأخرى في المنتصف. كان يلف حول نفسه وجد الغرفة التي علي الجانب الأيمن بابها مفتوحاً قليلاً، تقدم إليها وفتح الباب، فوجد غرفة معلق عليها صور أطفال وورق مكتوب عليه اسمائهم بالدم منها ورقة كبيرة مكتوب عليها اسم محمود بالدم ايضاً، ثم وجد رجلاً جالساً يرتدي ثوباً أسود وعمامة سوداء، ولم يستطع تحديد ملامحه؛ لأنه كان يضع علي وجه قناعاً لونه أسود ايضاً و امامه مرتبة عليها طفل صغير من مظهره يبدو انه لا يتجاوز العشرة أو الحادية عشر من عمره، ويبدو

ايضاً أن ذلك الطفل ميتاً أو مخدراً وبجانب هذا الرجل العديد من الأدوات ما استطعت تحديده هو انه كان بجانبه سكين، ومنشاراً صغيراً، ومقصات كثيرة لا حصر لها، ثم وجدت الرجل امسك بمقص أزال به فروة رأس الطفل بسهولة شديدة ،ووضعها جانبه ثم المنشار الصغير أخذه ينشر عظام الجمجمة، وكانت الدماء تنزل من الطفل الصغير بللت المرتبة والغرفة، وبالفعل استطاع أن يفتح جمجمة الطفل.

كان بجانبه مرطبان زجاجي به ماده شفافة، ففتحه، ثم امسك بعقل الطفل واخرجه من جمجمته ووضعه داخل المرطبان، وبعدها استيقظ الطفل ونظر لي وهو يبكي، فعندها صرخت:

كيف يستيقظ الطفل بعد خلع عقله منه؟

سمع الرجل ذو الرداء الأسود صوت صراخي فنظر لي وامسك السكين وقام يركض خلفي، وعند التفاتي كي أركض هرباً منه وجدت ابني "علي" أمامي فشعرت بالرعب الشديد، فأمسك يدي وقال:

- كان يجب أن تعرف.

كنت أود أن أقول له "عما تتحدث يا بني؟" ولكن صوتي اختفي، واختفي ابني معه، فاستيقظت وأنا اصرخ واردد:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

استيقظت فريدة، وقالت لي:

- ما خطبك؟

ثم أحضرت كوب الماء من جانبها ناولته لي، فشربته، ثم قلت لها وأنا انهج:

- كابـ... وس، كابوس.

ثم قمت من جانبها وذهبت إلى الحمام لكي اغسل وجهي حتى استوعب ما حدث وغسلت وجهي عدة مرات وأثناء غسل وجهي سمعت صوت يأتي من خلفي يقول "بابا!" انه صوت ابني أنا اعرفه جيداً نظرت خلفي سريعاً؛ ولكني لم أجد شيئاً.

اتجهت مباشرة نحو غرفة "علي" ابني، املاً أن أعرف مصدر الصوت، وقفت في الغرفة صامتاً مذهولاً من ذلك الحلم المفزع، فجأة سمعت زوجتي تناديني باسمي من خلفي:

- وائل!!!

انتفضت فزعاً بمجرد سماع صوتها، فوضعت يديها على كتفي، وقالت:

-ما خطبك؟ لما كل ذلك الفزع والعرق الذي على جبينك؟

فقلت لها:

-لا شيء، أنا بخير لا تقلقي بشأني. كم الساعة الآن؟

- الثامنة صباحاً.

- ماذا ؟! عليّ الذهاب إلى العمل الآن فلدي الكثير من الأعمال.

- استرح اليوم يا حبيبي يبدو عليك التعب والإرهاق.
- لا أستطيع فلدي الكثير من العمل.

قبلت فريدة رأسي وذهبت لإعداد الفطور، ارتديت ملابسي للذهاب إلى العمل، وتناولت فطوري سريعاً، وودعت زوجتي. ركبت سيارتي، اثناء الطريق وقفت في إشارة المرور كالعادة فلا يمكن الذهاب إلى الشركة التي أعمل بها دون زحمة المرور المعتادة، وضعت اسطوانتي المفضلة في الكاسيت، ثم التفت جانبي وجدت بائعاً يبيع الجرائد؛ ولكني صدمت عندما وجدت مكتوب في الصفحة الأولي لجريدة الأهرام اختفاء الطالب المجتهد محمود درويش الأول للمرحلة الابتدائية. والذي صدمني أكثر انني وجدت الصورة الموضوعة في الجريدة تتشابه مع الطفل الذي رأيته في الحلم!

شعرت بتوتر شديد، ثم فُتحت الإشارة واتجهت نحو عملي. أثناء وصولي للشركة، وجدت صديقي أيمن صافحته ثم جلست على مكتبي لأتابع عملي محاولاً نسيان الأمر، وفجأة وجدت أيمن يقول بصوت مرتفع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

التفت إليه:

- ما بك يا أيمن؟

ناولني هاتفه، وقال لي:

- انظر إلى ذلك الطفل، انه الأول في المرحلة الابتدائية، يقول والده انه اختفي ليلة أمس ولا يعلمون إلى أين ذهب! كان يلعب مع اصدقائه في الشارع، ثم اختفي!

بدأت اتصبب عرقاً، وأحدث نفسي:

"انه ذلك الطفل الذي رايته في الحلم، يا إلهي! ماذا أفعل؟ هل اذهب إلى الشرطة وأقول لهم ما رايته؟ ولكنه مجرد حلم ولن يقتنعوا بكلامي بل سوف يسخرون منّي."

قاطعني أيمن من حديثي لنفسي:

- وائل، وائـــل، بما تفكر؟ أراك شارد الذهن.

- لا شيء يا صديقي.

كنت اتابع عملي وأنا أفكر ماذا افعل، حاولت نسيان الموضوع؛ ولكن دون جدوى. انهيت عملي، وذهبت إلى البيت. وبدأت أقص على زوجتي ذلك الحلم الذي أصبح حقيقة. شعرت زوجتي بالقلق؛ ولكنها حاولت أن تطمئنني:

- انها مصادفة فقط، ويمكن أن تكون فكرت في علي كثيراً، فرأيت ذلك الحلم.

حاولت أن اقنع نفسي، حتى انسي الأمر فلا يسعني سوى ذلك. ذهبت إلى النوم أنا وزوجتي، كنت خائف أن اري كابوساً وكأنني كنت متأكد انني سوف أري شيء. فريدة حاولت تهدئتي، قبلت رأسي، وقالت لي:

- لا تقلق، لن يتكرر ذلك الحلم مرة أخرى، هيا نقرأ بعض آيات القرآن ونخلد إلى النوم.

وبالفعل نمت....

كابوساً آخر أكثر رعباً؛ وجدت نفسي في المقابر، ثم رأيت ذلك الرجل صاحب الرداء الأسود والملثم حالماً كاشفاً ونازلاً إلى القبر فنزلت وراءه لأري ماذا يفعل؟ اتجه نحو جثة من الجثث وأزال الكفن عن وجهها فوجدت طفلاً صغيراً في نفس عمر محمود تقريباً حمله، وخرج من القبر، وخرجت وراءه وكان يسير به بسرعة شديدة، والغريب أن الرجل لا يشعر بي انني اسير خلفه، ووجدت نفسي أمام ذلك المنزل المهجور مرة آخري، صعدت خلفه إلى الدور الثاني حيث تلك الغرفة مرة أخرى ووجدته يضع الطفل علي تلك المرتبة وبجانبه ادوات التشريح ولكن المختلف في ذلك ان الصورة المعلقة على الحائط مكتوب عليها اسم يامن بالدم.

امسك ذلك الرجل المشرط الذي كان وسط الأدوات، ولكن هذه المرة لم يزيل فروة رأسه، بل سلخ جلده واخذ يزيل جلد الطفل الصغير المسكين،

الدم موجود في مكان لم اتحمل ذلك الموقف وبدأت أجري، رأيت ابني يقف خلفي ويردد تلك الجملة: "كان يجب أن تعرف."

استيقظت فزعاً، سمعت زوجتي صوتي:

- وائل، هل رأيت ذلك الحلم مرة أخري؟

- نفس الرجل يسلخ جلد طفل ميت.

احتضنتني زوجتي، وأخذت تقرأ بعض آيات القرآن وتمسح على رأسي.

- لا تقلق انه حلم فقط.

ولكننا فزعنا حين سمعنا صوت صراخ سيدة فاتجهنا نحو الشباك فتحناه، فوجدناها تصرخ وتبكي وحولها ناس كثيرين وزوجها، وتقول له:

ابني، يامن، أليس كافياً عليّ أن يموت، آآآآآه! إذا اردت أن أزوره أين اجده الآن؟ يا رب، يا رب!

فسأل أحد الواقفين الأب عما حدث، فقال:

- أن حارس القبور وجد قبر عائلتنا مفتوحاً فنزل لكي يتفقد الأمر فوجد أن يامن ابننا ليس موجوداً في القبر ولم يمر على موته سوي يومان فقط!

وظل الرجل يبكي بحرقة وألم، دخلت الغرفة، وأغلقت فريدة الشباك:

- لا يمكن أن يحدث ذلك انه نفس اسم الطفل الذي رأيته في الحلم، أنا رأيت الرجل وهو يأخذه من قبره ويسلخ جلده!

بدأت أبكي.

- غير معقول يا وائل! هل رأيت ذلك الرجل؟

- للأسف لم أستطع تحديد ملامحه فقد كان يضع على وجهه قناعاً اسود.

قمت من مكاني، وقلت:

- يجب أن أنزل حالاً وأخبرهم بما رأيت!

منعتني فريدة من الخروج:

- اهدأ لن يصدقك أحد انه مجرد حلم، بل سوف يتهموك أنك خطفت ابنهم.

- إذاً ماذا افعل، قولي لي؟

- لا أدري! بدأت اقلق؛ ولكن ليس أمامنا سوي أن نصبر!

- كيف نصبر؟، لا أريد أن احلم مرة آخري ويموت أطفال آخرين، لن أنام بعد اليوم.

- هذا ليس حلاً.

- لا بل هو الحل، أشعر انني قتلتهم، اخاف أن أكون ذلك الرجل ذو الرداء الأسود، لا أريد أن أنام بعد اليوم، امنعيني من النوم يا فريدة احبسيني، أنا لا أدري ماذا يحدث.

وبدأت ابكي، احتضنتني زوجتي، محاولة التخفيف عني، وقالت لي:

- لا تقلق، فأنا معك، ولن أتركك.

كانت فريدة تساعدني بكل الطرق كيلا أنام؛ ولكن غلبها النوم في النهاية، مر يومان وأنا أحاول جاهداً عدم النوم؛ ولكن دون جدوى، نمت مرة آخري، وأنا جالساً على الكرسي أشاهد التلفاز. وحلمت انني في نفس المنزل اللعين واصعد درجاته كما فعلت في المرات السابقة ولكن هذه المرة لم يكن هناك طفل واحد بل ثلاث أطفال يشبهون بعضهم تماماً ومكتوب اسمائهم علي الحائط يحيي وياسر وياسين بالدم، وامسك الرجل ذو الرداء الأسود قاسي القلب والضمير وأخذ من الطفل الأول قلبه، والثاني يداه الاثنتين، والثالث رجليه الاثنتين، وعند اكتشاف الرجل وجودي حاول الإمساك بي، لكني ركضت بأسرع ما لدي، وخرجت خارج المنزل حتي وجدت نفسي أمام المقابر التي أخذ الرجل ذو الرداء الأسود كما اسميه الطفل يامن، توفقت عندما تأكدت أن الرجل لا يركض خلفي.

وفجأة....

سمعت صوت ينادي عليّ من خلفي ويقول:

"بابا!"

انه صوت علي ابني التفت خلفي فوجدت ظلاً كبيراً وضوء في المنتصف بدأ هذا الظل يصغر حتى اتضح أمامي أنه "علي" ابني ممسكاً شمعة. وناداني مرة آخري:

"بابا!"

كنت سعيداً بوقوف ابني المتوفي أمامي، حاولت امساكه؛ ولكنه ابتعد عني، وقال لي:

- لا يجوز أن تلمسني!

سألته:

- ما الذي آتي بك إلي هنا؟ ولما كل مرة تقول لي "كان يجب أن تعرف"؟

- كنت أريد أن اخبرك عن قاتل الأطفال حتى تستطيع أن تنقذهم

- ومن قتلهم؟ أنا!!!

- لا تقلق يا والدي لست أنت الذي قتلتهم.

- إذاً من قتلهم؟!

- لا أستطيع أن اخبرك، ولكني يمكن أن تري، تعالي خلفي.

مشيت وراء علي لا أردي إلى أين سوف نذهب، مشينا في خط مستقيم، ظهر باب مضيء أمامنا، فتحه علي ودخلنا منه، ثم اختفي الباب تماماً بعد دخولنا، ووجدت نفسي أمام شقتي. سألت علي:

- ما الذي أتي بنا إلى هنا؟

- لا تقلق يا أبي سوف تعرف الحقيقة الآن.

لم ندخل شقتي؛ ولكننا اتجهنا نحو الشقة التي أمامنا، انها شقة جاري ماهر، فتح علي الباب بكل سهولة ودخلت خلفه، ووجدت نفس الغرفة التي وجدتها في المنزل القديم امامي بها نفس الأوراق ومعلق ورقه مكتوب عليها تاريخ ٥/١٢ بالدم وجميع الأدوات التي قام بها الرجل بأخذ أعضاء الأطفال، واعضائهم موجودة على الطاولة، وكان معلق صورة طفل ومكتوب بجانب صورته اسمه أحمد بالدم، وبجانبهم كفن به مجموعة من العظام. التفت خلفي لكي أسال "علي" ليتأكد ظني من القاتل؛ ولكنه اختفي.

عندها استيقظت من النوم، ووجدت خبر في التلفاز عن اختطاف ثلاثة أطفال توأم في سن الحادية عشر. ناديت علي فريدة وقلت لها انني عرفت من قاتل هؤلاء الأطفال، وحكيت لها كل ما شاهدته في الحلم.

نظرت زوجتي إليّ، وقالت:

- ولكن يا وائل أنت لا زالت لا تعرف من القاتل.

- لا بل اعرفه؛ إنه ماهر.

- ماهر!!

- نعم، انه طبيب، وقادر على فعل كل هذا استخراج المخ وسلخ الجلد، حتى الأدوات التي رأيتها أدوات تشبه الأدوات التي يستخدمها الطبيب.

- ماذا سوف نفعل الآن؟

- علينا أن ننقذ الطفل الذي سوف يقتل، لا أريد أن أتحمل ذنبه "علي" جعلني أري تلك الأحلام حتى أنقذ الأطفال من شر ذلك الرجل.

بدلت ملابسي وفتحت باب الشقة واتجهت مباشرة نحو شقة ماهر. ثم نادتني زوجتي وقالت:

- وائل، انتظر لن اتركك وحدك.

طرقت باب شقة ماهر ففتحت الباب زوجته نهي، فسألتها بغضب:

- أين ماهر؟

- لا أدري.

- لا بل أنتِ تعلمين جيداً أين هو، وتعلمين ايضاً انه سبب في اختفاء كل هؤلاء الأطفال.

- لا أريد أن اعلم عنه شيئاً، فمنذ موت مهند ابننا وأنا أريد الطلاق منه، ولكن ليس هناك أي مكان أذهب إليه.

-أريد أن أري غرفة ماهر، إذا سمحتي، لا أريد أن يقتل طفل آخر.

شعرت نهي بالقلق، ثم سمحت لي بالدخول إلى غرفته، وبالفعل كان ظني صحيحاً وجدت نفس الأوراق، وأسماء الأطفال، ووجدت ذلك التاريخ.

قلت لها:

- ٥/١٢ ألا تعلمين عن ذلك التاريخ شيء.

-انه تاريخ وفاة مهند.

ثم استطردت فريدة الحديث:

- انه اليوم ايضاً.

ثم قالت نهي:

- انني تذكرت قبل خروج ماهر قال لي أن ابننا سوف يرجع، وسوف يكون بيننا ولن يفترق عنا بعد اليوم، كنت أظن انه يهذي وسخرت منه؛ ولكنه قال لي: "سوف ترين سأذهب إلى قبره الآن وآتي به."

سألتها أين عنوان المدفن الخاص بهم بلهفة، واعطتني العنوان وركضت سريعاً وركبت سيارتي، ووجدت فريدة تركب معي وتقول:

- لن أتركك.

فوجدنا نهي تصعد السيارة ايضاً وقالت:

- وأنا ايضاً لن ادعكما تذهبان وحدكما.

توجهنا نحو مدفن عائلة ماهر وعند دخولنا المقابر وجدنا حارس القبور مُلقي على الأرض ميتاً، وفي صدره سكين. فاتصلت زوجتي بالشرطة لتبلغ عن جريمة قتل، وحتى ينقذونا لو حاول ماهر الاعتداء علينا.

تركنا الرجل وسرنا نحو المدفن، وبالفعل وجدنا ماهر داخل القبر، وكان معلقاً طفلاً على الحائط يبكي بحرقة وقد رسم على الأرض نجمة سداسية تشبه نجمة داوود ووضع على كل رأس نقطة الأعضاء التي اخذها من الاطفال العقل والقلب واليدين والرجلين والجلد وضلع واحد لا يوجد

عليه شيء، وفي منتصف النجمة وضع كفن ابنه مهند وفيه عظامه فلقد تحلل، وكان ممسكاً بكتاب.
عندما رآنا ماهر ضحك بسخرية لاذعة، وقال:
- لن تفشل خطتي في استرجاع ابني باقي خطوة واحدة فقط أن انتزع عين ذلك الطفل واضعها وأقرأ التعويذة.
فقلت له بحزم:
- اتركه فلن يعود ابنك.
فقال لي:
- لن يقدر أحد أن يمنعني!
وفتح الكتاب الذي في يده وأخذ يغمغم بكلام غير مفهوم، وأثناء قرأته الكتاب سرت نحوه؛ ولكني لم أستطع الحركة فبدأت الأرض تهتز من تحتنا، ويظهر من تحت الأرض هياكل عظمية تلتف حولي أنا وزوجتي ونهي. وبدأ يقرأ كلام لم أستطع أن افهمه وبعدها ظهر مهند امامنا، فصرخت نهي:
- مهند، ابني!
فقال ماهر لها:
-ألم أقل لكي يا حبيبتي انني أستطيع استرجاع ابننا؟

أخرج ماهر من جيبه مشرطاً، وأقترب من أحمد المعلق علي الحائط حتى يقتلع عينه؛ ولكن مهند امسك يد ابيه، وقال له:

- مهند لن يعود، ابتعد عنه.

- انه صوت ابني أنا اعرفه جيداً، لقد فعل كل ذلك حتى ينقذ الطفل.

واختفي بعدها مباشرة مهند أقصد ابني والهياكل العظمية وتوقفت الأرض عن الحركة. فقال ماهر:

- لااااا سوف يعود ابني سوف أكمل التعويذة حتى يعود.

ركضت نحوه وبدأت امنعه بالقوة؛ فوجدنا الشرطة آتيه من خلفنا فأمسكت بماهر وقبضت عليه. ومن يومها لم أري ابني حتى الآن، إما أنا فبدأت أذهب إلي طبيب نفسي حتى أعلم ما سبب تلك الأحلام، وزوجتي واقفة بجانبي دائماً لا تبتعد عني، وماهر فقد ذهب إلى مستشفيي الأمراض العقلية ولا يقول سوي جملة واحدة. "سوف يعود ابني" !!!!"

"لا شيء يؤذي الإنسي مثل الحقيقة، ولا شيء يسعده مثل الوهم."

– غازي القصيبي

وهم!

أجلس الآن أمام طبيبي النفسي بدونك يا نصفي الآخر، كنت معتاد على فعل كل شيء معكِ، كنتِ تشاركيني حزني وفرحي واحلامي وتنفذين كل أوامري مهما كانت صعبة وقاسية.

أجلس هنا في هذه الغرفة الباردة والتي بها مكتبة كبيرة بها الكثير من الكتب لو رأى سيجموند فرويد هذه المكتبة الضخمة لسقط مغشي عليه لما بها من كتب ومكتب فخم وأثاث رائع، وهذا الشيزلونج المريح.

أمامي الطبيب، ويدعي إبراهيم عبد السلام الطبيب النفسي الشهير، ويبدو على ملابسه الأناقة والترتيب وملامحه تظهر عليها الهدوء وابتسامته التي لا تفارقه ابداً. ابتسم الطبيب لي ونظر إلىّ نظرة حانية، وقال:

- أنا هنا لكي اسمعك، كل ما ستقوله هنا لن يخرج ابداً، قل كل ما تريد قوله، فكلي آذان صاغية.

ضغط الطبيب علي مسجل الصوت ليبدأ بتسجيل الجلسة.

- اسمي خالد مختار الشريف ابن رجل الأعمال الشهير مختار الشريف، لديه العديد من الشركات والأموال التي لا حصر لها، وذو نفوذ وسلطة، أعيش في رفاهية، كل شيء متوفر لي، أفعل ما أريد، فلا قيود عليّ، والدتي توفت وأنا في عمر سنتين، كل ما اعرفه عنها انها كانت جميلة وعيناها الواسعة، وطيبة، وكان يحبها كل من يعرفها، علي حسب قول جدتي قبل وفاتها، كانت تقول لي دائماً "الطيبون يذهبون بسرعة!" أبي لا يعرف عني شيء ابداً كل همه فقط الزواج، وجمع ثروة هائلة، هو يظن انه عندما يعطيني الكثير من الأموال، وتوفير كافة احتياجاتي يكون قد قام بجميع واجباته نحوي، كنت طوال الوقت وحيداً.

كتب الطبيب بعض الملاحظات في ورقته، ثم التفت إليّ، وقال:

- ليس لديك أي اصدقاء؟:

- لدي الكثير؛ ولكن ليس مقربين، في الغالب يتقربون لي لثروتي ونفوذي، وأنا ايضاً لا أحب القرب بمن هم أقل مني في المستوي، إلى أن ظهرت.

- من؟

- نصفي الآخر، روحي الأخرى ...

-من هذه؟

- سلمي، تعرفت عليها صدفة كانت صديقة لأحدي صديقاتي السابقات آية، لم يكونوا صديقاتي حقاً كانوا موجودين في حياتي للتسلية والترفيه عني، لم أحب واحدة منهم، حاولت كثيراً ولم أقدر، إلا أن جاءت رأيتها جالسة مع إحدى صديقاتي، في الجامعة وكنت ذاهباً إليها حتى نخرج ونتسلى كالعادة، رأيتها جالسة بجانبها، لم تكن جميلة، عادية، لم تضع مساحيق التجميل، انما فتاة روحها خفيفة وعيناها الواسعة التي غرقت فيها عندما جاءت عيني عليها، ويبدو على ملابسها انها من أسرة متوسطة الحال.

كانت آية سعيدة جداً لرؤيتها لي، وأمسكت حقيبة يدها لتستعد للرحيل، كانت آية جميلة جداً وعيناها زرقاء، وجسدها الممشوق، كل من ينظر إليها يكون سبحان الخالق. ثم نظرت إليّ مبتسمة:

- أود أن اعرفك على صديقتي سلمي.

نظرت إليها وقالت:

- هذا خالد الذي تحدثت معكِ عنه كثيراً.

عندما هممت لمصافحتها نظرت إليّ، وقالت:

- اهلاً!!

ثم نظرت إلى صديقتها بغضب شديد:

- ألم أقل لكِ من قبل بألا تتحدثي معه انه يخدعك ويتسلى بكِ!

ثم نظرت إليّ:

- أليست هذه هي الحقيقة؟

ضحكت بصوت عالي ثم نظرت في عينيها:

- نعم الحقيقة فكل بنت تعرفت عليها كانت من أجل التسلية فقط.

سمعت آية تصرخ في وجهي:

- ما الذي تقوله يا خالد؟!!!

- أقول لكِ الحقيقة أنا لم اعتد على الكذب ابداً، يمكن أن أفعل أي شيء تتخيلينه؛ ولكني لست مضطراً ابداً إلى الكذب، فإذا ذهبتي فهناك الآلاف غيرك بانتظاري.

انهارت آية في البكاء وانسحبت من الحديث، جمعت سلمي اوراقها لتذهب وراء صديقتها؛ لكني ناديت عليها:

- سلمي!

-.....

- سلمي!

نظرت إليّ وعلى ملامحها الغضب الشديد كأنها تريد أن تقول لي أود أن اقتلك!

- ماذا تريد؟

- كيف عرفتِ أنني لا أحب آية؟

- هذا متوقعاً فأمثالك لا يرتبط بالفتاة المسكينة التي تظهر لها حبها، التي تنفذ جميع أوامره.

- أتعلمين أنتِ جميلة، وعيناكِ بحر أود أن أغرق فيه.

ضحكت سلمي باستهزاء:

- أنا لست الفتيات التي تعرفت عليهم، ولن تغيب عقلي، كما انني لا أصاحب الأولاد لأن تربيتي ولا ديني يسمحون لي بذلك، أمي علمتني هكذا قبل وفاتها.

- والدتك...!

تركتني وذهبت مبتعدة عني.

نزلت من عين خالد، دمعة ثم بعدها بدأ في البكاء بهيسترية شديدة، ربت ابراهيم علي كتف خالد وحاول التخفيف عنه:

- حسناً، اهدأ.

ثم قام واحضر كوب الماء الموضوع على مكتبه واعطاه لخالد، فشربه خالد، ثم استطرد الطبيب في الحديث:

- إذا كنت لا تود الحديث الآن يُمكننا الاكمال في المرة القادمة.

- لا، أنا أود الحديث احاول أن أجد حلاً لما أنا فيه.

- إذاً ماذا حدث بعد ذلك؟

- يومها لم أذق طعم النوم، حتى ذهبت إليها الجامعة في اليوم التالي، رأيتها جالسة مع آية، اقتربت منهم كانت آية تظن انني جئت من أجلها. نظرت آية والسعادة ملئت وجهها بعد ما كانت ملامح الحزن في عيناها:

- كنت متأكدة إنك سوف تأتي اليوم لتصالحني.

كنت اسمعها وعيني على سلمي.

- ولكني لم آتي اليوم من أجلك، عليكِ أن تعتادي من اليوم أنني غير موجود في حياتك، أنا لم احبك في أول الأمر ولست قادر علي أن أكذب عليكِ بعد الآن.

انهارت آية في البكاء، وقالت:

- لماذا تفعل بي كل هذا؟ أنا احببتك حقاً.

- أعرف انني مخطئ؛ ولكن لابد أن تعلمي الحقيقة، لن أكذب على أي فتاة بعد اليوم.

أمسكت آية حقيبتها وكانت تبكي بحرقة شديدة، وذهبت. نظرت إلى سلمي مرة آخري وجدتها مبتسمة، وقالت:

- كنت أعلم إنك سوف تأتي وتقول هذا الكلام، فرغم من أفعالك السيئة إلا أن ضميرك حي.

ثم استطردت في الحديث:

- عليّ أن أذهب وراء آية الآن.

- سلمي.

- نعم.

- أنا ايضاً أمي متوفية، ولكنها ماتت وأنا صغير جداً ولم أستطع أن اتعلم منها شيء.

- الله يرحمها ويصبرك.

- هل يمكنك أن تكوني بجانبي وتساعدني لأكون أفضل، لأعرف ذاتي؟

صمتت سلمي للحظات، ثم قالت:

- لا يمكن أن أكون صديقة لك هذا مستحيل، بجانب إنك كبير بما فيه الكفاية حتى تكون مسئولاً عن قرارتك!

- أعدك لن أضرك ابداً، ولن أسبب لك أي أذى، انا احتاج بان يكون هناك شخص صادق في حياتي، اعرف حقيقتي وذاتي.

أجابت سلمي على مضض:

- اوافق لكن بشروط.

- ماهي؟

- لن نتقابل خارج الجامعة، ولن تأخذ رقم هاتفي.

- امممم، موافق.

تعددت اللقاءات، واقتربنا من، بعض كثيراً أصبحت أفضل تعدلت حياتي وبدأت أفكر في مستقبلي، حتى انني ترأست شركة من شركات والدي،

حتى أبي كان مستغرباً لهذا التغير المفاجئ. حتى آتي اليوم الذي طلبت منها أن اتقدم إليها لخطبتها، كانت فرحة جداً؛ ولكنها طلبت مني أن انتظر حتى تنتهي من امتحاناتها.

في تلك الفترة اقتربنا من بعضنا أكثر، كانت تقول لي دائمًا انني نصفها الآخر الذي اكتملت به، كنت في، قمة سعادتي. وبعد قبل انتهاء آخر امتحان، طلبت من والدي أن يذهب معي لخطبة سلمي؛ ولكنه رفض بسبب ان مستواها أقل مني، وأنها تحبني فقط لأموالي وليس لشخصي، حاولت إقناعه ولكنه كان رافضاً بشدة، وهددني انه سوف يحرمني من الميراث. لم أبالي لكل ذلك الكلام التافه، وقررت الاعتماد على نفسي.

ذهبت في اليوم التالي إلى سلمي في الجامعة؛ ولكنها كانت حزينة كنت أظن انه بسبب الاختبار، فسألتها:

-ماذا فعلتِ اليوم؟

- الحمد لله.

- ماذا بكِ؟

- لا شيء، أنا اريد أن اسألك نفس السؤال، يبدو عليك الحزن الشديد.

- طلبت من أبي أن آتي لخطبتك؛ ولكنه رفض، أريد أن اطلب منكِ طلب.

بحزن شديد:

- ما هو؟

- أريد أن تحددي ميعاد مع والدك لأتقدم لخطبتك بمفردي، سوف أن اعتمد على نفسي، سوف ابحث عن عمل بعيداً عن أبي، لن أتخلى عنكِ ابداً.

كانت سلمي سعيدة للغاية لما تسمعه. وبالفعل ذهبت إلى والدها لأتقدم لخطبتها، وقدر ظروفي وتمسكي بها وحبي لها، وبالفعل حددنا ان يكون ميعاد الخطبة بعدها بأسبوع.

لم تستمر الخطبة طويلاً، ثم بعدها....

كان الطبيب يكتب بعد الملاحظات، ثم نظر إليّ عندما صمت، فقال:

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- قتلتها!!!

بانفعال شديد والطبيب عليه علامات الدهشة:

- ماذا؟!!! كيف قتلتها؟ بل لماذا قتلتها؟

- الغيرة فعلت بي كل ذلك، بمجرد خطبتي لها أحسست انها ملكاً لي، كنت لا أطيق حتى أن أري والدها يتحدث معها. وفي أحد الأيام كنت ذاهباً إليها الجامعة حتى اوصلها إلى منزلها كما أفعل كل يوم وجدتها واقفة مع اصدقاءها يتناقشون وكان من بينهم شاب قالت لي من قبل انه معجب بها وصرح لها بذلك ولكنها رفضت، دبت الغيرة في صدري

وشعرتُ بالغليان، واتجهت نحوها وامسكتها من يدها وجذبتها واتجهنا إلى سيارتي. صرخت سلمي في وجهي:

- ماذا تفعل؟! لقد جعلتني محرجة جداً من اصدقائي نتيجة فعلتك، لماذا فعلت هكذا؟!

سرت بالسيارة بأقصى سرعة وهي تطلب مني أن اتوقف وأنا لا أجيبها. ثم بدأت في البكاء فحينها أوقفت السيارة. فقلت لها بغضب شديد:

- لن أغفر لكِ، لقد كنتِ واقفة مع ذلك الشاب المعجب بكِ.

وطرحت عليها العديد من الاسئلة التي لا حصر لها:

- هل أعجبتِ به ايضاً؟ ألم تعودي تحبيني؟ أنا لاحظت تغيرك المفاجئ؛ ولكني لم أكن أعرف انه بسبب اعجابك به! تريدين الابتعاد عني؟!

نظرت إليّ وسلمي مصدومة من كلامي، ثم قالت:

- لقد جُننت، ما كل هذه الأفكار الغريبة، كل أفكارك خاطئة.

-لا، بل صحيحة، أعلم إنكِ سوف تنكرين.

فتحت سلمي باب السيارة لكي تذهب، ولكني منعتها امسكتها من يدها، وقلت لها:

- أنتِ ملكي، لن يأخذك أحداً مني، وإلا سيكون مصيره القتل.

لم أشعر انني كنت ممسكاً برقبتها، فماتت مني، لم اقصد أن اقتلها. عندما هدأت وجدتها لا ترد عليّ ولا تتحرك.

- سلمي استيقظي، كفاكِ تمثيل حتى ابتعد عنكِ.
لكن دون جدوى......
- حسناً إذا أردتِ أن تذهبي هيا.
لن ترد أكيد لأنها ماتت، ظللت ابكي واصرخ ولا أدري ماذا أفعل. بقيت ممسكاً بيديها أتحدث معها وهي لا تسمعني وأحاول أن أقنع نفسي انها مازالت حية حتى الساعة التاسعة مساء، ووالدها يتصل بي وبها، وأنا لا أدري ماذا سوف أقول له.
اتصلت بوالدي فلن ينقذني غيره، كان غاضباً مني في اول الأمر؛ ولكن عندما عرف ما حدث. جاء إليّ مباشرة، واخرجني من السيارة واخذني إلى سيارته وأمر أحد رجاله بقيادة سيارتي خلفنا، وذهبنا إلى الڤيلا وأمر رجاله بالتصرف في الجثة؛ ولكني طلبت منه بأن تدفن الجثة في حديقة منزلنا حتى تكون قريبة مني.
أبي مصدوم وحزين لما يحدث، نظر لي، وقال:
- اصمت لا أريد أن اسمع صوتك حتى نتخلص من تلك المصيبة.
وبالفعل دفن جثمان سلمي ولا أدري مكانها، واخذ أبي هاتفي وهاتف سلمي. واعطاني هاتفاً آخر، وسافرت إلى الغردقة حتى أكون بعيداً عن القاهرة حتى لا يستطع والد سلمي العثور عليّ، وارسلني إليك لكي

تساعدني على نسيان سلمي، هو يقول انها ماتت؛ ولكنها لم تمت أنا اراها كل يوم وأتحدث معها!

الطبيب مذهول لحديثي ويقول:

- كيف تتحدث معها، وتراها.

- أنا اراها كل يوم تأتي لي، وهي تبكي وتقول "كنت اعشقك قبل أن تقتلني.... لماذا قتلتني، كنت احبك!" كلما أراها أحاول أن أقنعها انني أحبها، ولكن دون جدوى. اراها كل يوم وتتكرر نفس الجملة! حاولت الانتحار ثلاث مرات لكي أذهب إليها؛ لكن في كل مرة يتم إنقاذي، أريد ان أموت لكي أعيش معها في العالم الآخر. في الأسبوع الماضي لم تقول لي نفس الجملة المعتادة؛ ولكنها قالت انها سوف تتزوج من جني يعيش تحت الأرض يحبها ويعشقها، وأنها موافقة على هذا الزواج، حاولت الانتحار؛ ولكن أبي منعني، أريد الذهاب إليها بأي طريقة.

ابتسم خالد فجأة، وكان ينظر إلى الحائط، ثم قال:

- ها هي تقف وراءك يا دكتور ألا تراها.

نظر إبراهيم خلفه لم يجد شيئاَ، حاول أن يتماسك اعصابه ويجاريه في الحديث، فقال له:

- ماذا تقول لك؟!

كان خالد مبتسماً منذ اللحظة التي قال فيها انه يراها إلى الآن، وقال:

- انها تقول لي انني يجب أن أذهب إليها، حتى أنقذها من ذلك الجني وأتزوجها أنا يجب أن اذهب إليها سريعًا.

شعر الطبيب إبراهيم بالشفقة علي خالد، وظل يفكر كيف الحب يفعل المستحيل ويؤدي بتغيير الإنسان، بل يصل به إلى حد الجنون، وقتل نفسه، صدق من قال إن الإنسان يشقي بحسه. نظر إليه، محاولاً إظهار أن ليس به شيء، وانه بخير، وقال:

- حسناً يا خالد، انتهت جلستنا الآن أود أن اراك في الأسبوع القادم في نفس الموعد.

وفور خروج خالد من الغرفة، اتصل الطبيب إبراهيم بوالد خالد، وأخبره بحالته الخطرة وانه يجب نقله إلى مصحة نفسية وعقلية فوراً حتى لا يقتل نفسه....

لكن هذا القرار كان متأخراً جداً، فعقب وصول عربة المصحة النفسية إلى البيت لنقل خالد، كان قد قتل نفسه، فعندما كان صعد الأب والطبيب إبراهيم وعمال المشفى السلم، وفتحوا باب غرفته، وجدوه ملقي على الأرض والسكين داخل بطنه والدم يسيل منه على الأرض.... انهار الأب بالبكاء على ابنه وإبراهيم مصدوماً وحزيناً؛ لأنه جاء متأخراً قبل إنقاذه.

لكن هل سوف يلتقي خالد بحبيبته سلمي فعلاً.... !!!!

"كلنا فاسدون لا أستثني أحدا حتى بالصمت
العاجز الموافق قليل الحيلة."

– الفنان أحمد زكي

الواقع المزيف

كثيراً ما كنت أري في المسلسلات والأفلام القديمة، عندما يحل الفقر علي بطلة الفيلم أو تكون فقيرة بالفعل، تتجه إلى الانحراف، وفعل أشياء تتنافي مع تقاليد المجتمع وبيئتها وتربيتها، وتنسي كل ما نشأت عليه، حتي تتخلص من الظلم الواقع عليها والفقر المدقع الذي لا ينتهي، ويبدأ المخرج ومؤلف السيناريو تبرير ذلك الانحراف من داعي الفقر وإنقاذ نفسها من الضياع، لم يهتم مؤلف أو كاتب يوماً إظهار واقعنا الحقيقي الذي نعيش فيه، وهو كفاح المرأة من أجل كسب لقمة العيش بالحلال، واستخدام قوتها الجسدية في العمل، فإنني اعتقد كما أن هناك طريق

للانحراف ،هناك ايضاً طريق الصلاح والعمل الشريف حتي لو كان بسيطاً!

فعندما نري سيدة تبيع الخضروات والفاكهة علي أحد أرصفة الشوارع ارحم لها من الانحراف؛ بل إن ذلك الانحراف هو الضياع ذاته فليس جميعنا فاسدين وعندما تقسو الحياة ليس علينا الاتجاه إلى الطريق الخاطئ، وكلنا نعلم جميعاً من يريد أن يفعل شيء يفعله، الأمر فقط متوقف على الضمير، وأن يكون الله في قلوبنا ونشعر انه معنا في كل وقت وحين.

اما أنا التي تحكي لكم القصة لست هذا ولا ذاك أنا اسمي دينا طالبه جامعيه في السنة الدراسية الأخيرة لكلية الحقوق انسانه عادية كل حلمي الآن إنهاء دراستي الجامعية والعمل بعد ذلك، شاهدت في خلال سنواتي الأربع، أقصد الخمس نتيجة لرسوبي سنة، حكايات لم أصدق انها توجد في الحياة، فالجامعة كما يقولون الحرية، كل واحد مسئول عما يفعل، فأنت مسئول عن مستقبلك وحياتك فليس هناك رقيب. رأيت هناك كيف يكون الإنسان المتحكم في اختيار مصيره وقرارته، وأقرب قصتين ظلوا محفورون في ذهني كأقرب مثال على ذلك هما صديقتين لي ياسمين وسهيلة.

عندما دخلت الجامعة تعرفت علي مجموعة من الاصدقاء كنت أجلس معهم في المحاضرات والذهاب والإياب وكان منهم ياسمين وسهيلة، كنا خمسة اصدقاء أنا ورنا وأماني وياسمين وسهيلة، كنا اصدقاء مقربين بالرغم من اننا كنّا مختلفين في الأفكار وطرق التعامل والمستوي الاجتماعي، فكانت أماني شديدة الغني، أما أنا ورنا من الطبقة المتوسطة والتي ينتمي إليها أغلب الشعب المصري والتي سوف تختفي هذه الطبقة قريباً بسبب ما تمر به البلاد، اما ياسمين وسهيلة كانوا من طبقة فقيرة، وكانوا يضطرون للعمل مع الدراسة لمساعدة أنفسهم حتي لا يصبحون حملاً ثقيلاً علي اهلهم.

كنت دائماً أري حقد ياسمين الشديد علي رنا، وحديثها الدائم عنها انها ليست جميلة، ولا تستحق كل هذا الغني، وأن هي من تستحق هذا الغني لجمالها وعند تأتي رنا تضحك في وجهها وتحاول التقرب منها حتى "تنول من الحب جانب" كما تقول؛ ولكن رنا لم تكن تحب ياسمين ابداً ليس لأنها فقيرة؛ ولكن لأنها تعلم انها لا تحبها الإنسان بفطرته دائماً يشعر بمن يحبه أو لا حتى لو كان يظهر له عكس ذلك.

كنت في أغلب الأحيان صامتة اسمع وأري ما يحدث دون التعليق ما لا دخل لي؛ لكنني كنت أحلل دائماً ما يحدث، واتعلم منه. كانت سهيلة دائماً يبدو عليها الحزن والمعاناة وكأن ملامح وجهها رسمت ليبدو شكلها

حزيناً دائماً ،كثرة مشاكلها الدائمة والسعي كسب لقمة عيشها بالحلال، كان يجعلها دائماً مهمومة سهيلة أخت لأربعة أطفال في المراحل الابتدائية والإعدادية المختلفة وامها، والدهم توفي منذ سبع سنوات لم يترك لهم معاش ولا أي شيء سوي ورشة النجارة التي كان يعمل بها لسداد التزامات بيته، وضحك عليهم عمها وأخذها منهم؛ لأنه ادعي أن ابيهم باع له الورشة قبل موته لأنه كان يستلف منه أموال لسداد احتياجات البيت وعندما كثرت ديونه اضطر لبيعها لأخيه. وبالرغم أن كل ذلك لم يحدث وأن عمهم بقسوته وظلمه ومعرفة حالهم أخذها منهم.

وبرغم كل تلك الظروف لم تستسلم سهيلة وامها، فأمها كانت تعمل في البيوت في النهار وتفصيل الملابس في الليل على مكينة الخياطة وسهيلة من الجانب الآخر كانت تساعد نفسها وأسرتها وتعمل بعد إنهاء محاضراتها في إحدى محلات الملابس، وكان من الممكن أن تتجه أي طريق آخر لكسب أموال أكثر من طرق الانحراف التي نعلمها جميعاً؛ لكن ذلك لم يحدث.

وفي يوم كنا في الجامعة فطلبت مني أن تنقل مني محاضرات يوم الغد؛ لأنها لن تستطيع الحضور غداً فأجابتها:

- بكل سرور، لكن لماذا لن تأتي غداً؟

- شكراً لكِ يادينا، والدتي مريضة ويجب أن أذهب معها إلي الطبيب غداً للاطمئنان عليها.

تدخلت ياسمين في الحوار، وقالت لها:

- ألف سلامة عليها، ألست بحاجة لعض الأموال لمساعدتها؟

فقالت سهيلة بملل شديد:

- لا شكراً، انني معي ما احتاجه.

فقالت ياسمين:

- حسناً، أنا أردت فقط مساعدتك، ألم تفكري في العرض الذي عرضته عليكِ؟

كنت واقفة بينهم لا أفهم أي شيء من حديثهم. فقالت لها سهيلة بامتعاض شديد:

- قلتُ لكِ مائة مرة لن اتجه إلى هذا الطريق الذي تمشين فيه أنا هكذا في أحسن حال حتى لو اضطررت إلى أكل التراب أنا وعائلتي.

فقالت لها ياسمين بسخرية:

- هذا كله كلام فارغ، عندما يشتد الفقر عليكِ ولا تستطيعي الإنفاق على نفسك وعلى أسرتك سوف تأتين إليّ وتتوسلي لي أن أنقذك من الضياع.

- لا شكراً لكِ، أن الموت أرحم لي من كل ذلك.

ضحكت ياسمين بسخرية لاذعة وتركتنا. فقالت سهيلة وهي غاضبة:

- هي تتعمد دائماً استفزازي والضغط عليّ حتى اوافق على ما تريد.

فقلت لها:

- عما تتحدث ياسمين؟ وما ذلك العرض الذي تتحدث عنه؟ ولماذا تتحدثون مع بعضكما بهذه الطريقة؟

- هي تريد أن أعمل معها!

- ولما لا تعملين معها؟ أنا أري انها تحاول مساعدتك.

فردت ياسمين وهي تضحك:

- أنتِ طيبة جداً يا دينا، لو علمتي ماذا تعمل لن تتحدثي معها بعد اليوم.

قلت بفضول شديد:

- ماذا تعمل؟

- انها تعمل في أحد الملاهي الليلية.

كنت مصدومة لما سمعت:

- كيف؟ هل اهلها يوافقون على هذا؟

- أهلها لا يعلمون عنها شيئاً سوي انها يجب أن تأتي لهم بالأموال لتنفق عليهم، اخوها الأكبر لا يعمل ويعتمد عليها واخواتها الثلاث الصغار يحتاجون للمساعدة حتى يكملوا تعليمهم وامها مريضة كما تعلمين.

- ولكن لو علم اهلها بعملها هذا لن يوافقون على أن يتركوها هكذا.

- لستُ أدري، أنا فقط اريدها أن تبتعد عني وتتركني.

ثم تنهدت سهيلة وقالت:

- انني أشفق عليها، هي تظن انها بعملها هذا سوف تجني الكثير من الأموال وتصبح غنية.

فقلت لها:

- عسى الله أن يرشدها إلى الطريق الصحيح.

ذهبت إلى البيت وأنا أفكر طوال الليل، لماذا اتجهت ياسمين إلي هذا الطريق وسهيلة تحارب بكل قوتها أن تحافظ علي نفسها وحياتها ومستقبلها، مع انهم نفس الظروف ونفس الجامعة ونفس الحياة تقريبًا؛ لكني أدركت فقط أن الموضوع متعلق بالضمير وإيماننا بأن الله لن يتركنا ابداً، وأن تلك هي حكمة الله هناك الخير والشر، وهناك طريق الضلال والصلاح وأنت من تقرر الاتجاه إلي أي طريق، وحمدت الله على حالي لست غنية ولكني ميسورة الحال والله يسترني دائماً وأجد من يساعدني ويصرف عليّ وأبي وأمي يساعدوني علي تحقيق أحلامي وتيسير أموري.

مع مرور الوقت والسنوات الدراسية وجدنا أن سهيلة أن الله رزقها بالعمل في إحدى مكاتب المحاماة الكبيرة وخطبتها وأنها سوف تتزوج قريباً فلقد جزاها الله نتيجة صبرها على فقرها، كان عندها يقين دائماً بأن الله سوف يساعدها، اما ياسمين لم يحدث لها شيئاً مازالت ظلت

تنتقل من ملهي إلى آخر للبحث عن المال، بل انها وجدناها في يوم آتيه إلى الجامعة وهي تبكي بحرقة وحكت لسهيلة انها فقدت شرفها والعياذ بالله، وبالرغم من كل ما حدث لها هي مستمرة بما تفعله.

تمت بحمد اللّه